الفِعْلُ (أَخَذَ) وَمُشْتَقَّاتُهُ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ دِرَاسَةٌ فِي التَّرْكِيبِ وَالدَّلَالَةِ

د. رائد فريد نجيب طافش *

تاريخ تقديم البحث: ٣٠/ ١٠/ ٢٠١٧م. تاريخ قبول البحث: ٢٨/ ٦/ ٢٠١٨م.

مُلَخَّصُ

اسْتُعْمِلَ الفِعْلُ (أَخَذَ) ومُشْتَقَّاتُهُ في القُرْآنِ الكَرِيمِ بِصورَةٍ مَوفُورَةٍ عَددًا في تَرَاكِيبَ لُغُويَّةٍ مُتَنَوِّعةٍ بَلَغَ عَدَدُهَا(٢٧٣) مَرَّةً, لَقَدْ كانَ هذا الحُضُورُ الغَنِيُّ لِهذا الفِعلِ ومُشْتَقَّاتِهِ مُوزَّعًا في صِيَغٍ تَصْرِيفيَّةٍ بَلَغَ عَدَدُها(١٤) صِيغَةً، تَنَوَّعَتْ فِيهَا الدَّلالاتُ بِصُورَةٍ لافِتَةٍ.

وَيُبَيِّنُ البَحْثُ مَا للمعنَى المِحْوَرِيِّ المُسْتَكِنِّ في الجَذْرِ، ومَا للتَّرْكِيبِ اللُّغويِّ مِنْ أَثَرٍ في توزيعِ هذه الدلالاتِ وَتَفَرُّعِهَا في السياقاتِ اللغويةِ الَّتي اسْتُعْمِلَ فيها الفعلُ (أَخَذَ) ومُشتقاتُهُ في القرآن. وسَيقومُ البَاحِثُ بِرَصْدِ تِلكُمُ التَنَوُّعاتِ التركيبيَّةِ لِهذَا الفِعْلِ ومُشتقاتِهِ في القُرآنِ الكَرِيمِ، واسْتِجلاءِ فَاعِلِيَّتِهَا الدَّلاليَّةِ في اللُّغَةِ والكَلامِ.

الكَلِمَاتُ الدالة: الفِعْلُ (أَخَذَ) – الدَّلالة – التَّركيب – القُرآنُ الكَرِيمُ

* قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الأميرة عالية الجامعية، جامعة البلقاء التطبيقية.

حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة. الكرك، الأردن.

The Verb (ʾ a ḱ a ż a) and its Derivatives in the Holy Quran, a Study in Structure and Semantic

Dr. Raid Fareed Tafish

Abstract

The verb **(ʾ a ḱ a ż a)** and its derivatives were used many times in the Holy Quran. They were used in various linguistic structures numbered (273) times. The rich use of this verb and its derivatives has 14 inflections, and its meanings and semantics varied markedly.

The research shows how the meaning of the root verb and its grammatical structure affect the distribution of these semantics and their derivatives in the linguistic contexts where the verb **(ʾ a ḱ a ż a)** and its derivatives were used in the Holy Quran. The researcher will observe the structural variations of this verb and its derivatives in the Holy Quran, and will clarify its semantic effectiveness in language and speech.

Keywords: the verb (ʾ a ḱ a ż a) – semantic – structure – Holy Quran

مُقَدِّمَةٌ:

تُؤَدِّي الأفعالُ ومشتقاتُها في العربيةِ وظائفَ تركيبيِّةٍ ودلاليةٍ متنوعةٍ، وتتسعُ فيها الطاقةُ التوليديةُ حسبَ استعمالِ المتكلمينَ بها في سياقاتِهَا اللغويةِ المتنوعة. وتختلفُ قدرةُ هذه الأفعالِ ومشتقاتِها على توليدِ الدلالاتِ بحسبِ ما تحملُهُ حروفُ الجَذْرِ من معانٍ أساسيةٍ محوريةٍ قابلةٍ للاتِّساعِ والتوزعِ في الأبنيةِ المشتقةِ المتاحةِ لدى مستعملي اللغةِ. ثُمَّ تنمو الطاقةُ التوليديةُ الدلاليةُ لهذه الأبنيةِ وتزدادُ باتجاهاتٍ مختلفةٍ تنتظمُ جميعها وَفْقَ سُنَنِ المواضعةِ اللغويةِ المستقرةِ والمنضبطةِ بقوانينِ اللغةِ المختلفةِ وما تُبِيحُهُ من أشكالِ التطورِ والاتساعِ بفعلِ قوانينِ المجازِ وتفاعلِ العلاقاتِ البنائيةِ التركيبيةِ السياقيةِ في الكلام.

وتبرزُ في هذا المقامِ فكرةُ الاشتقاقِ وما تنتجُهُ من أشكالِ التوليداتِ الدلاليةِ المتنوعةِ في الأبنيةِ المشتقةِ. ولسنا هنا بصددِ عرضِ مسألة الاشتقاقِ من حيث الأصالة والفرعية، فقد تحدث في ذلك كثير من العلماء قديما وحديثا(١).

والذي يميل إليه الباحث في هذه المسألة أن حروف الجذر هي أصل الاشتقاق، فإذا احتاج المتكلم من هذه الحروف أن يشتق الفعل استعمله، وإذا احتاج إلى معنى المصدر اشتقه من حروف الجذر واستعمله. ويؤيد ذلك أننا نجد في اللغة جذورا لم يستعمل منها غير بناء الفعل، وجذورا أخرى لم يستعمل منها غير بناء المصدر. ونجد أيضا لكثير من الأفعال مصادر متعددة فمن أيها اشتق الفعل إن كان المصدر هو أساس الاشتقاق(٢)؟!.

ومهما يكن من أمر الاختلاف في الاشتقاق فإنه يبقى من أهم مزايا العربية ووسائلها في النمو والاتساع، وقد أكسبها ثروة من الألفاظ لا تتعاند بل تتساند، ولا تتناهى بل تتنامى على مر العصور استجابة لمقتضيات الحياة وما يستجد فيها من معان وأفكار وأدوات ومخترعات(٣).

وإذا كان الاشتقاق بمفهومه الصرفي يعالج المشتقات، فيحدد أبنيتها المجردة والمعاني التي تنصرف إليها هذه الأبنية فإن مفهومه في هذا البحث يتسع إلى ما هو أبعد من ذلك؛ إذ إن التنوع الدلالي للفعل أخذ ومشتقاته في القرآن الكريم ليس محصورا فيما تنتجه أبنية المشتقات من دلالات

(١) ينظر: طرزي، فؤاد حنا، **الاشتقاق**، مكتبة لبنان، ط١، ٢٠٠٥م، ص: ١٥-٢٨.

(٢) قال السيوطي في (المزهر) في باب (مَصْدَرٌ على تِسْعَةِ أَلْفَاظ): "وقد جاء على تسعة: مَكَثَ مَكْثًا، ومُكْثًا، ومِكْثًا، ومُكُوثًا، ومَكَثًا، ومُكْثَانًا، ومَكِيثِيّ، ومُكَيْثَاءَ، ومُكْثَةً. وجاء أيضا: تَمَّ الشيءُ تَمًّا، وتُمًّا، وتِمًّا، وتَمَامًا، وتِمَامًا، وتَتِمَّةً، وتُمَامًا، وتُمَّةً، ولَيْلُ التِّمَامِ". ينظر: السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر(٩١١هـ/١٥٠٥م)، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ٢/٨٨.

(٣) ينظر: رؤوف، رنا طه، **الدلالة المركزية والدلالة الهامشية بين اللغويين والبلاغيين**، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، ٢٠٠٢م، ص: ٦٧، وأبو سكين، عبد الحميد، **الاشتقاق وأثره في النمو اللغوي**، مكتبة الفنون النموذجية، ط١، ١٣٩٩هـ، ص: ١٥

وحسب، وإنما ينضاف إليها تنوع دلالي جديد منبعه استعمال هذه الأبنية في السياقات القرآنية المختلفة التي ورد فيها الفعل (أخذ) ومشتقاته. وآنئذٍ تتجلى طاقة توليدية تركيبية دلالية تتوزع فيها المعاني باختلاف التراكيب السياقية التي وردت فيها هذه الأبنية، فتتآزر أبنية الفعل (أخذ) ومشتقاته بتلوناتها الصرفية كافة مع ما تشتمل عليه تلك السياقات من ألفاظ وتراكيب لتظهر الفاعلية الدلالية لهذا الفعل ومشتقاته بصورة قطوف دلالية تتدلى وتَتَمَكّنُ في النص القرآني. وفي هذا المقام تسعى الدراسات اللغوية الحديثة إلى دراسة التفاعلات النصية للألفاظ لاكتشاف دلالات تداولية محتومة بفعل الاستعمال، فتتجاوز بذلك الدلالة التركيبية للفظ إلى الدلالة التداولية الاستعمالية(١).

الفعل (أَخَذَ) ومشتقاته في المصادر اللغوية:

حضر الفعل (أَخَذَ) ومشتقاته في المصادر اللغوية بصورة لافتة، وتوفر على عدد من المعاني كان أبرزها:

١. **الحَوْزُ والإِحَاطَةُ:** وهذا المعنى أَصْلٌ في جميع المعاني التي يتفرع إليها هذا الفعل ومشتقاته، فهو المعنى المحوري الذي يتضمنه الجذر، وهو السمة الدلالية الأساسية التي نجدها حاضرة في جميع الكلمات المتفرعة من هذا الجذر، ويظهر هذا المعنى جليا في عدد من الكلمات التي رصدتها المصادر اللغوية، منها قولهم(الإِخْذُ) وهو: "مَا تَحْفِرُهُ لِنَفْسِكَ كَهَيْئَةِ الحَوْضِ تُمْسِكُ فِيهِ المَاءَ أَيَّامًا"(٢)، وهذا حوز وإحاطة بماء السماء الذي يجري فينتفع به الإنسان بأن يحوزه ويحيط به في حفرة يحفرها يسقي منها زرعه وبهائمه. ومنه(الإِخَاذَةُ) وهي: "أَرْضٌ يَحُوزُهَا الرَّجُلُ لِنَفْسِهِ أَوِ السُّلْطَانُ"(٣)؛ فهي كالضيعة أو البستان تكون في ناحية البلد أو المدينة يقطعها الرجل لنفسه أو يهبها السلطان له فيحوزها ويحيط بها. ومن ذلك أيضا قولهم: "أَخَذَ اللَّبَنُ يَأْخُذُ أُخُوذَةً، حَمُضَ. وَأَخَّذْتُهُ أَنَا تَأْخِيذًا، حَمَّضْتُهُ"(٤)، فكأن الحموضة تمكنت فيه وأحاطت. ومنه: "مَآخِذُ الطَّيْرِ: مَصَايِدُهَا"(٥) فهذه المصايد هي المواضع التي يتمكن فيها الإنسان من الإحاطة بالطير وحيازتها.

(١) ينظر: المتوكل، أحمد، **الوظائف التداولية في اللغة العربية**، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٥، ص: ٨-١١.

(٢) المصدر السابق، مادة (أخذ).

(٣) الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي (٣٩٣هـ/١٠٠٣م)، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٨٧ م، مادة (أخذ).

(٤) الصغاني، رضي الدين الحسن بن محمد بن الحسن القرشي (٦٥٠هـ/١٢٥٢م)، **الشوارد: ما تفرد به بعض أئمة اللغة**، تحقيق وتقديم: مصطفى حجازي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ط١، ١٩٨٣م، ص: ٧٥.

(٥) الفيروزآبادى، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (٨١٧هـ/١٤١٤م)، **القاموس المحيط**، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت، ط٨، ٢٠٠٥ م، مادة (أخذ).

٢. التَّنَاوُلُ: أَخَذَ الشَّيْءَ يَأْخُذُهُ أَخْذًا إِذَا تَنَاوَلَهُ، قال الخليل: "الأَخْذُ التَّنَاوُلُ"(١)، وقال اللَّيْثُ: "وهو خلاف العطاء"(٢). ويكثر هذا المعنى في الأمور الحسية التي يتناولها الإنسان ويحصل عليها، كقولنا: أَخَذَ الرَّغِيفَ وَأَخَذَ الصَّحِيفَةَ. وقد يقع على الأمور المعنوية كقولنا: أَخَذَ النَّصِيحَةَ مِنْ أَبِيهِ وَأَخَذَ الحَنَانَ مِنْ أُمِّهِ، ونحو ذلك من المعنويات.

٣. الحَبْسُ وَالمَنْعُ: ومنه كلمة (التَّأْخِيذُ) وهو: "أَنْ تَحْتَالَ المَرْأَةُ بِحِيَلٍ مِنَ السِّحْرِ تَمْنَعُ بِهَا زَوْجَهَا عَنْ جِمَاعِ غَيْرِهَا... وَقَدْ أَخَّذَتْهُ السَّاحِرَةُ تُؤَخِّذُهُ تَأْخِيذًا"(٣) وهي بهذه الحيل والتمائم التي تصنعها تريد حبس الرجل ومنعه من لقاء غيرها من النساء. ومن هذا المعنى قيل للأَسِيرِ: أَخِيذٌ، وَقَدْ أُخِذَ فُلَانٌ إِذَا أُسِر(٤). ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ﴾(٥). وقد توفر هذا المعنى في كلام العرب، ومنه قول أُخْتِ صُبْحٍ العَادِيِّ تبكي أخاها صُبْحًا وَقَدْ قَتَلَهُ رَجُلٌ سِيقَ إِلَيْهِ عَلَى سَرِير: "أَخَذْتُ عَنْكَ الرَّاكِبَ والسَّاعِيَ والمَاشِيَ والقَاعِدَ، وَلَمْ آخُذْ عَنْكَ النَّائِمَ"(٦). فهي تلوم نفسها لأنها استطاعت أن تمنع عنه هؤلاء لا يصلون إليه ولكنها غفلت عن النائم على السرير دخل عليه فقتله. ويظهر هذا المعنى كذلك في حديث النبي صلى الله عليه وسلم في أهل السفينة حين قال: "وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا جَمِيعًا"(٧) يقال: أَخَذْتُ عَلَى يَدِ فُلَانٍ، إِذَا مَنَعْتُهُ عَمَّا يُرِيدُ أَنْ يَفْعَلَهُ كَأَنَّكَ أَمْسَكْتَ يَدَهُ(٨).

٤. الإِصابةُ بِالأَدْوَاءِ: ومنه يقال: "بِعَيْنِهِ أُخُذٌ، وَهُوَ الرَّمَدُ"(٩). وقال الليث: "أُخِذَ البَعِيرُ يَأْخَذُ أَخْذًا، وَهُوَ كَهَيْئَةِ الجُنُونِ"(١٠). وأضاف ابن فارس في هذا المعنى قولهم: "أَخِذَ الفَصِيلُ أَخْذًا، إِذَا أَكْثَرَ

(١) الفراهيدي، **كتاب العين**، مادة (أخذ).

(٢) الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد بن الهروي (٣٧٠هـ/٩٨٠م)، **تهذيب اللغة**، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م، مادة (أخذ).

(٣) الأزهري، **تهذيب اللغة**، مادة (أخذ).

(٤) ينظر: ابن منظور، **لسان العرب**، مادة (أخذ).

(٥) التوبة: ٥.

(٦) ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل (٤٥٨هـ/١٠٦٦م)، **المحكم والمحيط الأعظم**، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠ م، مادة (أخذ).

(٧) ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد (٢٤١هـ/٨٥٥م)، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠١ م، رقم الحديث:١٨٣٧٠، ٣٢٢/٣٠.

(٨) ينظر: ابن الأثير الجزري، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم (٦٠٦هـ/١٢٠٩م)، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٧٩م، ٢٨/١.

(٩) الأزهري، **تهذيب اللغة**، مادة (أخذ).

(١٠) المصدر السابق، مادة (أخذ).

مِنْ شُرْبِ اللَّبَنِ فَفَسَدَ بَطْنُهُ"(١). فهذه أدواء تصيب الإنسان والحيوان وتتمكن منه فكان قياس ألفاظها من الفعل(أَخَذَ) ومشتقاته.

٥. المُصَاحبَةُ والتَّبَعِيَّةُ: ومنه ما ذكره الأزهري في التهذيب من قول العرب: "لَوْ كُنْتَ مِنَّا لَأَخَذْتَ بِإِخْذِنَا؛ أَيْ أَخَذْتَ بِشَكْلِنَا وَهَدْيِنَا... وَقَالَ ابْنُ السِّكِّيتِ: يُقَالُ: ذَهَبَ بَنُو فُلَانٍ وَمَنْ أَخَذَ إِخْذَهُمْ...أَيْ وَمَنْ سَارَ سَيْرَهُمْ"(٢) فَالأَخْذُ والإِخْذُ مصاحبةُ الرجل للقوم ومتابعته لهم والتخلق بخلائقهم والسير على طريقتهم في أمور عيشهم.

٦. المُصَارَعَةُ والاعْتِقَالُ: ومنه يقال: "ائْتَخَذَ القَوْمُ يَأْتَخِذُونَ ائْتِخَاذًا، وَذَلِكَ إِذَا تَصَارَعُوا فَأَخَذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مُصَارِعَهُ أَخْذَةً يَعْتَقِلُهُ بِهَا"(٣). ويظهر من هذا المعنى أن تلك (الأَخْذَةَ) تكون بحركة سريعة يلوي فيها الرَّجُلُ رِجْلَهُ على رِجْلِ مُصَارِعِهِ فيتمكنُّ من صرعه وطرحه أرضا.

٧. الكَسْبُ والانْتِفَاعُ: ومنه قول الليث: "اتَّخَذَ فُلَانٌ مَالَ اللهِ دُوَلًا يَتَّخِذُهُ اتِّخَاذًا، وَتَخِذَ يَتْخَذُ تَخْذًا: بِمَعْنَاهُ. وَاتَخِذْتُ مَالًا أَيْ كَسَبْتُهُ"(٤). ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾(٥). قال ابن الجزري: "وَاخْتَلَفُوا فِي (لَاتَّخَذْتَ) فَقَرَأَ البَصْرِيَّانِ وَابْنُ كَثِيرٍ(لَتَخِذْتَ) بِتَخْفِيفِ التَّاءِ وَكَسْرِ الخَاءِ مِنْ غَيْرِ أَلِفٍ وَصْلٍ"(٦).

٨. الدَّيْمُومَةُ والاسْتِمْرَارُ: ويظهر هذا المعنى في صيغة الافْتِعَال وتصريفاتها من الفعل (أَخَذَ)؛ فإذا كان أَخْذُ الشَّيْءِ يعني حَوْزَهُ والحُصُولَ عليه فإنَّ الاتِّخَاذَ أَخَصُّ منه فيكون لِشَيْءٍ يَسْتَمِرُّ، قال أبو هلال العسكري: "وَالاتِّخَاذُ أَخَصُّ الشَّيْءِ لِأَمْرٍ يَسْتَمِرُّ فِيهِ، مِثْلُ الدَّارِ يَتَّخِذُهَا مَسْكَنًا وَالدَّابَّةُ يَتَّخِذُهَا قَعْدَةً"(٧). ومنه وزن (فَاعِل) من (أَخَذَ) قال الفيروزآبادي: "وَالآخِذُ مِنَ الإِبِلِ: مَا أَخَذَ فِيهِ السِّمَنُ أَوِ السِّنُّ"(٨). فهي مستمرة في سمنها دائمة عليه مر السنين.

---

(١) ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكرياء القزويني الرازي (٣٩٥هـ/١٠٠٥م)، **مجمل اللغة**، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٦ م، (باب الألف والخاء وما يثلثهما)،٨٩/١.

(٢) الأزهري، **تهذيب اللغة**، مادة (أخذ).

(٣) المصدر السابق، مادة (أخذ).

(٤) المصدر السابق، مادة (أخذ).

(٥) الكهف: ٧٧.

(٦) ابن الجزري، شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد بن يوسف (٨٣٣هـ/١٤٢٩م)، **النشر في القراءات العشر**، تحقيق: علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى، تصوير دار الكتاب العلمية، ٣١٤/٢.

(٧) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (٣٩٥هـ/١٠٠٥م)، **الفروق اللغوية**، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة، ١٣٨/١.

(٨) الفيروزآبادى، **القاموس المحيط**، مادة (أخذ).

القَهْرُ والغَلَبَةُ: قال ابن فارس: "وَاسْتَأْخَذَ الرَّمَدُ فِيهِ فَكَسَفَ نَكَّسَ رَأْسَهُ، وَيُقَالُ: غَمَّضَ. فَقَدْ صَحَّ بِهَذَا مَا قُلْنَاهُ أَنَّهُ سُمِّيَ أُخُذًا لِأَنَّهُ يَسْتَأْخِذُ فِيهِ. وَهَذِهِ لَفْظَةٌ مَعْرُوفَةٌ، أَعْنِي اسْتَأْخَذَ، قَالَ ابْنُ أَبِي رَبِيعَةَ[١]:

إِلَيْهِمْ مَتَى يَسْتَأْخِذُ النَّوْمُ فِيهِمُ *** وَلِي مَجْلِسٌ لَوْلَا اللُّبَانَةُ أَوْعَرُ "[٢]

فإذا اسْتَأْخَذَ الرَّمَدُ في عين الرجل فقد تمكن منه فقهره وغلبه ونكس رأسه فلا يستطيع النظر رافعا رأسه إلى ضوء الشمس. وكذلك النَّوْمُ في بيت عمر بن أبي ربيعة إذ تمكن من القوم فغلبهم وقهرهم. وعليه يجري معنى(الأَخْذ) في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾[٣]. ومنه قولهم: "أَصْبَحَ فُلَانٌ مُؤْتَخِذًا لِمَرَضِهِ وَمُسْتَأْخِذًا"[٤] إذا أصبح مستكينا له مغلوبا لأعراضه ونتائجه.

الشُّرُوعُ والبَدْءُ: ومنه قولهم: "أَخَذَ يَفْعَلُ كَذَا، أَيْ جَعَلَ. وَأَخَذَ فِي كَذَا أَيْ بدأ"[٥]. ومنه قول الشاعر[٦]:

فَأَخَذْتُ أَسْأَلُ وَالرُّسُومُ تُجِيبُنِي *** وَبِالاعْتِبَارِ إِجَابَةٌ وَسُؤَالُ

و(أَخَذَ) بهذا المعنى من أفعال الشروع العاملة عمل كان بأحكام خاصة. ومعنى الشروع فيها يكون في بدء دخول الاسم في الخبر.

٩. الجَعْلُ والصَّيْرُورَةُ: ومنه قولنا: اتخذت زيدا صديقا. أي جعلته وصيرته فيتعدى الفعل إلى مفعولين. ومنه قوله تعالى: ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلا﴾[٧].

١٠. العَذَابُ والعُقُوبَةُ: ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[٨]. وقد ورد هذا المعنى في القرآن في مواضع كثيرة سيأتي بيانها. وفرق بعض اللغويين بين (الأَخْذ والمُؤَاخَذَة) في هذا المعنى فقالوا الأَخْذُ: العقوبة مع الاستئصال، والمُؤَاخَذَةُ: عقوبة بلا

(١) ابن أبي ربيعة، عمر، **ديوانه**، قدم له ووضع هوامشه الدكتور فايز محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٦م، ص: ١٢٥. والرواية فيه: إليهم متى يستمكن النوم منهم...

(٢) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مادة (أخذ).

(٣) البقرة: ٢٥٥.

(٤) الأزهري، **تهذيب اللغة**، مادة (أخذ).

(٥) ابن سيده، **المحكم والمحيط الأعظم**، مادة (أخذ).

(٦) البيت من الشواهد النحوية وهو بلا نسبة. ينظر: ابن هشام، أبو محمد جمال الدين عبد الله بن يوسف بن أحمد(٧٦١هـ/١٣٥٩م)، **شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب**، المحقق: عبد الغني الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع، سوريا، ص: ٣٥٧. وينظر: يعقوب، د. إميل بديع، **المعجم المفصل في شواهد العربية**، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٦م، ١٤٨/٦.

(٧) الفرقان: ٢٨.

(٨) هود: ١٠٢.

استئصال[١]. قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[٢].

وبعد هذه السياحة في المصادر اللغوية وجدنا الفعل (أخذ) ومشتقاته يتوزع في معان ودلالات متنوعة. وما كان لهذه المعاني والدلالات أن تتولد لولا الطاقة التوليدية الكامنة في حروف الجذر. فالمعنى المحوري الأساسي المختزن في حروف الجذر قابل للاتساع إلى مثل هذه الدلالات وأكثر منها كما سنرى في استعمال الفعل (أخذ) ومشتقاته في القرآن الكريم.

ووفق نظرية التأصيل الاشتقاقي للمعاني في العربية ورائدها ابن فارس في معجم مقاييس اللغة ترتبط هذه المعاني والدلالات جميعا بسبب إلى أصل واحد هو المعنى المحوري الأساسي، فالعودة إلى الجذر الأصلي للكلمة يساعد في الكشف عن معالمها، ومعرفة الجذر تتصل اتصالا وثيقا بالاشتقاق وطرقه في اللغة[٣]. وفي ذلك يقول ابن فارس: "الهَمْزَةُ وَالخَاءُ وَالذَّالُ أَصْلٌ وَاحِدٌ تَتَفَرَّعُ مِنْهُ فُرُوعٌ مُتَقَارِبَةٌ فِي المَعْنَى. أَمَّا أَخَذَ فَالأَصْلُ حَوْزُ الشَّيْءِ وَجَبْيُهُ وَجَمْعُهُ. تَقُولُ أَخَذْتُ الشَّيْءَ آخُذُهُ أَخْذًا"[٤]. فحوز الشيء وجيبه وجمعه هو المعنى التأصيلي الاشتقاقي الذي يرتد إليه هذا الفعل ومشتقاته، ومعنى ذلك أنك أينما نظرت في استعمالات هذا الفعل ومشتقاته والدلالات المتنوعة التي تحتملها ستجد هذه الدلالات متفرعة عن هذا المعنى التأصيلي الذي قاله ابن فارس والذي أسميناه المعنى المحوري الأساسي. ولو نظرنا في المعاني والدلالات التي أثبتناها في أثناء سياحتنا في المصادر اللغوية للفعل (أخذ) ومشتقاته والتي وصلت إلى اثني عشر معنى سنجد أنها جميعا متفرعة عن هذا المعنى.

فتناول الشيء حوز وجيب وجمع له. ومعنى الإحاطة في قولهم (الإِخْذُ) وهو مَا تَحْفِرُهُ لِنَفْسِكَ كَهَيْئَةِ الحَوْضِ تُمْسِكُ فِيهِ المَاءَ، متفرع من المعنى المحوري الأساسي؛ إذ إن الإحاطة بالماء حوز وجمع له في مكان واحد. والحبس والمنع في (التَّأْخِيذ) وهي تلك الحيل التي تحتال بها المرأة لتحبس زوجها عن غيرها من النساء متفرع من الحوز والجيب والجمع؛ فالمرأة بذلك تريد أن تحوز زوجها وتحيط به وتجمعه إلى كنفها. والإصابة بالأدواء ومنه قولهم: بِعَيْنِهِ أُخُذٌ، وهو الرَّمَدُ متفرع من المعنى المحوري، فالداء إذا أصاب العين فقد حازها وأحاط بها وتمكن منها. والمصاحبة والتبعية ومنه قول العرب: لَوْ كُنْتَ مِنَّا لَأَخَذْتَ بِإِخْذِنَا، متفرع من المعنى المحوري، فَأَخْذُكَ بِإِخْذِنَا يعني حوزنا لك

(١) الزّبيدي، أبو الفيض محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني (١٢٠٥هـ/١٧٩٠م)، **تاج العروس من جواهر القاموس**، هذا الجزء بتحقيق عبد الستار فراج، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٧١م، مادة (أخذ).

(٢) النحل: ٦١.

(٣) ينظر: خليل، حلمي، **الكلمة دراسة لغوية معجمية**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط٢، ١٩٨٠م، ص: ٦٧.

(٤) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مادة (أخذ).

وإحاطتنا بك بحيث تسير على طريقتنا وتتخلق بخلائقنا. والمصارعة والاعتقال ومنه قولهم: اتْتَخَذَ القَوْمُ يَأْتَخِذُونَ ائْتِخَاذًا، وَذَلِكَ إِذَا تَصَارَعُوا، فيه حوز وجيب وجمع؛ فالمصارع يسعى إلى اعتقال صاحبه وحوزه والإحاطة به لطرحه. والكسب والانتفاع ومنه قولهم: تَخِذَ فُلانٌ مالًا، إذا كسبه، فيه حوز وجيب وجمع للمال. والديمومة والاستمرار في قولهم: اتَّخَذْتُ دارًا، فيه حوز وإحاطة بالدار التي استمررت باتخاذها مسكنا. والقهر والغلبة في قوله تعالى: (لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) فيه نفي لحوز النوم له جَلَّ وَعَلَا وإحاطته به. والشروع والبدء في قولنا: أَخَذَ يَفْعَلُ كذا، فيه حوز وجيب وجمع، فالذي يشرع في فعل الشيء يكون قد حاز أسبابه وأحاط بأدواته ليتمكن من فعله. والجعل والصيرورة في قولنا: اتَّخَذْتُ زَيْدًا صَدِيقًا، فيه حوز وجيب وجمع، فقد جعلته صديقا بأن حُزْتُهُ وأحطت به بما تَخَلَّقْتُ به من خلائق رَكَنَ إليها واسْتَكَانَ لحيازتي إيَّاهُ. والعَذاب والعُقُوبة في قوله تعالى: (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القُرَى) فيه حوز وجيب وجمع، فالعذاب والعقوبة عندما يقعان يكونان من رَبٍّ قَادرٍ على الحوز والإحاطة بالقوم الكافرين المستحقين لعقوبته.

وهكذا يظهر لنا أن المعنى المحوري الأساسي في الفعل (أَخَذَ) ومشتقاته فيه طاقة توليدية دلالية قابلة للتوزع في معان ودلالات كثيرة. وذلك بما تمتلكه حروف الجذر فيها من معنى محوري أساسي قابل للانفتاح والاتساع في معان ودلالات متنوعة. ولا يخفى كذلك أثر السياق الذي تأتلف فيه هذه الأفعال والمشتقات بتصريفاتها المتنوعة، وما يمتلكه هذا السياق من مكونات بنائية وتركيبية وأسلوبية. كل ذلك يتظافر معا لترتسم صورة المعاني والدلالات جلية واضحة. وفيما يأتي سيبين الباحث المعاني والدلالات التي توفر عليها الفعل (أَخَذَ) ومشتقاته في القرآن الكريم، وما امتلكه هذا الفعل ومشتقاته من خصوصية في إبراز المعاني.

الفعل (أَخَذَ) ومشتقاته في القرآن الكريم:

حضر الفعل (أَخَذَ) ومشتقاته في القرآن الكريم بصورة موفورة عددا حتى بلغ تعدادها(٢٧٣) مرة، وكان هذا الحضور موزعا في (٥٦) سورة من سور القرآن الكريم، وورد في سورة واحدة هي الأعراف (٢٩) مرة. وكان عدد الصيغ التصريفية التي جاء عليها هذا الفعل ومشتقاته(١٤) صيغة تصريفية هي: الفعل الماضي المجرد (أَخَذَ)، ومضارعه (يَأْخُذُ)، وأمره (خُذْ)، ومصدره الصريح (أَخْذ)، ومصدر المرة منه (أَخْذَة)، ومبنيه للمجهول من الماضي والمضارع (أُخِذَ ويُؤْخَذُ)، واسم الفاعل منه (آخِذ)، والفعل الماضي المزيد (اتَّخَذَ)، ومضارعه (يَتَّخِذُ)، وأمره (اتَّخِذْ)، واسم الفاعل منه (مُتَّخِذْ)، ومصدره (اتِّخَاذ)، والمضارع المزيد (يُؤَاخِذُ). وجميع هذه الصيغ التصريفية جاءت على صور تركيبية إسنادية متنوعة بحسب ما يقتضيه السياق من متطلبات الإسناد والتركيب، وفي الجدول الآتي بيان تفصيلي لذلك كله:

الصور الاشتقاقية لمادة (أَخَذَ) في القرآن الكريم	عدد المرات	الآيات
الماضي المجرد المبني للمعلوم (أَخَذَ): أَخَذَ، أَخَذَتْ، أَخَذَتْهُ، أَخَذْتُ، أَخَذَكُمْ، أَخَذْتُمْ، أَخَذْتُهَا، أَخَذَتْهُمْ، أَخَذْنَ، أَخَذْنَا، أَخَذْنَاهُ، أَخَذْنَاهُمْ، أَخَذَهُ، أَخَذَهُمْ	٦٩	البقرة:٥٥/٦٣/٨٣/٨٤/٩٣/٢٠٦، آل عمران: ٨١/١١ (مرتين)/١٨٧، النساء: ١٥٣/٢١/١٥٤، المائدة: ٧٠/١٤/١٢، الأنعام: ٤٦/٤٤/٤٢ الأعراف: ١٧٢/١٦٥/١٥٥/١٥٤/١٥٠/٩٦/٩٥/٩٤/٩١/٧٨/٣٠، الأنفال: ٦٨/٥٢، التوبة: ٥٠، يونس: ٢٤، هود: ١٠٢/٩٤/٦٧، يوسف: ٨٠، الرعد: ٣٢، الحجر: ٨٣/٧٣، النحل: ١١٣، الحج: ٤٨/٤٤، المؤمنون: ٧٦/٦٤/٤١، الشعراء: ١٨٩/١٥٨، القصص: ٤٠، العنكبوت: ٤٠/٣٧/١٤ (مرتين)، الأحزاب: ٧، فاطر: ٢٦، غافر: ٢٢/٢١/٥، فصلت: ١٧، الزخرف: ٤٨، الذاريات: ٤٤/٤٠، القمر: ٤٢، الحديد: ٨، الحاقة: ٤٥/١٠، المزمل: ١٦، النازعات: ٢٥
الماضي المجرد المبني للمجهول (أُخِذَ): أُخِذَ، أُخِذُوا	٣	الأنفال: ٧٠، الأحزاب: ٦١، سبأ: ٥١
المضارع المجرد المبني للمعلوم (يَأْخُذُ): يَأْخُذُ، يَأْخُذَكُمْ، يَأْخُذْهُ، يَأْخُذَهُمْ، يَأْخُذُوا، يَأْخُذُونَ، يَأْخُذُونَهَا، يَأْخُذُوهُ، تَأْخُذْ، تَأْخُذُكُمْ تَأْخُذُهُ، تَأْخُذُهُمْ، تَأْخُذُوا، تَأْخُذُونَهُ، تَأْخُذُونَهَا تَأْخُذُوهَا، نَأْخُذَ	٢٥	البقرة: ٢٢٩ /٢٥٥، النساء: ٢٠ (مرتين)/٢١/ ١٠٢ (مرتين)، الأعراف: ٧٣/ ١٤٥/ ١٦٩ (مرتين)، التوبة: ١٠٤، هود: ٦٤، يوسف: ٧٦/ ٧٩، النحل: ٤٧/٤٦، الكهف: ٧٩، طه: ٣٩/ ٩٤، النور: ٢، الشعراء: ١٥٦، يس: ٤٩، غافر: ٥، الفتح: ١٥/ ١٩/ ٢٠.
المضارع المجرد المبني للمجهول (يُؤْخَذُ): يُؤْخَذُ، يُؤْخَذْ	٥	البقرة: ٤٨، الأنعام: ٧٠، الأعراف: ١٦٩، الرحمن: ٤١، الحديد: ١٥.
فعل الأمر المجرد (خُذْ): خُذْ، خُذْهَا، خُذُوا، خُذُوهُ، خُذُوهُمْ	٢٢	البقرة: ٦٣/ ٩٣/ ٢٦٠، النساء: ٧١/ ٨٩/ ٩١/ ١٠٢، المائدة: ٤١، الأعراف: ٣١/ ١٤٤/ ١٤٥/ ١٧١/ ١٩٩/، التوبة: ٥/ ١٠٣، يوسف: ٧٨، مريم: ١٢، طه: ٢١، ، ص: ٤٤، الدخان: ٤٧، الحشر: ٧، الحاقة: ٣٠

الماضي المزيد (اتَّخَذَ): اتَّخَذَ، اتَّخَذَتْ، اتَّخَذْتُ، اتَّخَذْتَ، اتَّخَذْتُمْ، اتَّخَذْنُمُوهُ اتَّخَذْتُمُوهُمْ، اتَّخَذْنَاهُ، اتَّخَذْنَاهُمْ، اتَّخَذَهَا، اتَّخَذُوا، اتَّخَذُوكَ، اتَّخَذُوهُ، اتَّخَذُوهَا، اتَّخَذُوهُمْ	٦ ٦	البقرة: ٥١/ ٨٠/ ٩٢/ ١١٦، النساء: ١٢٥/ ١٥٣، المائدة: ٥٧/ ٥٨/ ٨١، الأنعام: ٧٠، الأعراف: ٣٠/ ٤٨/ ٥١/ ١٤٨/ ١٥٢، التوبة: ٣١/ ١٠٧، يونس: ٦٨، هود: ٩٢، الرعد: ١٦، الإسراء: ٤٠/ ٧٣، الكهف: ٤/ ١٥/ ٥٦/ ٦١/ ٦٣/ ٧٧/ ١٠٦، مريم: ١٧/ ٧٨/ ٨١/ ٨٧/ ٨٨، الأنبياء: ١٧/ ٢١/ ٢٤/ ٢٦، المؤمنون: ٩١/ ١١٠، الفرقان: ٣/ ٢٧/ ٣٠/ ٤٣، الشعراء: ٢٩، العنكبوت: ٢٥/ ٤١ (مرتين)، يس: ٧٤، ص: ٦٣، الزمر: ٣/٤٣، الشورى: ٦ /٩، ، الزخرف: ١٦، الجاثية: ٩/ ١٠/ ٢٣/ ٣٥، الأحقاف: ٢٨، المجادلة: ١٦، المنافقون: ٢، ، الجن: ٣، المزمل: ١٩، الإنسان: ٢٩، النبأ: ٣٩.
المضارع المزيد (يُؤَاخِذُ): يُؤَاخِذُ، يُؤَاخِذُكُمْ، يُؤَاخِذُهُمْ، تُؤَاخِذْنِي تُؤَاخِذْنَا	٩	البقرة: ٢٢٥ (مرتين)/ ٢٨٦، المائدة: ٨٩ (مرتين)، الكهف: ٥٨/ ٧٣، النحل: ٦١، فاطر: ٤٥.
المضارع المزيد (يَتَّخِذُ): يَتَّخِذُ، يَتَّخِذْ، يَتَّخِذَهَا، يَتَّخِذُوا، يَتَّخِذُونَ، يَتَّخِذُونَكَ، يَتَّخِذُوهُ، أَتَّخِذُ، أَتَّخِذْ، أَتَّخِذَنَّ، تتَّخِذَ، تَتَّخِذُ، تتَّخِذُنَا، تتَّخِذُوا، تتَّخِذُونَ، تتَّخِذُونَهُ، نَتَّخِذَ، نَتَّخِذَنَّ، نَتَّخِذَهُ	٥ ٤	البقرة: ٦٧/ ١٦٥/ ٢٣١، آل عمران: ٢٨/ ٦٤/ ٨٠/ ١١٨/ ١٤٠، النساء: ٨٩ (مرتين)/١١٨/ ١١٩ / ١٣٩ /١٤٤/ ١٥٠ ، المائدة: ٥٧/٥١، الأنعام: ٧٤/١٤، الأعراف: ٧٤/ ١٤٦ (مرتين)، التوبة: ١٦/ ٢٣/ ٩٨ /٩٩، يوسف: ٢١، النحل: ٥١/ ٦٧/ ٩٢/ ٩٤/٥١، الإسراء: ١١١، الكهف: ٢١/ ٥٠/ ٨٦/ ١٠٢، مريم: ٣٥ /٩٢، الأنبياء: ١٧/ ٣٦، الفرقان: ٢/ ٢٨/١٨/ ٤١/ ٥٧، الشعراء: ١٢٩، لقمان: ٦، القصص: ٩، يس: ٢٣، الزمر: ٤، الزخرف: ٣٢، الممتحنة: ١.
اسم الفاعل من الثلاثي(آخِذ): آخِذِينَ، آخِذِيهِ	٣	البقرة: ٢٦٧، هود: ٥٦، الذاريات: ١٦.
اسم الفاعل من المزيد (مُتَّخِذ): مُتَّخِذَ، مُتَّخِذَات، مُتَّخِذِي	٣	النساء: ٢٥، المائدة: ٥، الكهف: ٥١،
مصدر الثلاثي (أَخْذ): أَخْذًا، أَخْذُ، أَخْذَ، أَخْذَهُ، أَخْذِهِمْ	٥	النساء: ١٦١، هود: ١٠٢ (مرتين)، القمر: ٤٢، المزمل: ١٦
مصدر المرة من الثلاثي (أَخْذَة): أَخْذَةً	١	الحاقة: ١٠
المصدر من المزيد (اتِّخَاذ): اتِّخَاذِكُمْ	١	البقرة: ٥٤

أما المعاني والدلالات التي خرج إليها هذا الفعل ومشتقاته في القرآن الكريم فهي:

١. التَّوْثِيقُ والتَّأْكِيدُ: قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾(١).

لم يبعث الله تعالى نبيا إلا أخذ عليه عهدا في محمد صلى الله عليه وسلم، لئن بُعِثَ وهو حيٌّ لَيُؤمِنَنَّ به ولَيَنْصُرَنَّهُ ولَيَأْخُذَنَّ العهدَ له على قومِهِ(٢). إنَّ التأكيدَ على صِدْقِيَّةِ الدَّعوةِ المُحمديَّةِ، ووجوبِ اتّباعِهَا، أمرٌ يعتورُهُ النَّصَبُ والتَّعب، فاتِّباعُ دينٍ جديد يعني تحولًا جذريًا من الشِّركِ إلى التوحيدِ، وهو أمرٌ يَكْتنفُهُ الاسْتغرابُ والاستهجانُ والتشدُّدُ في الامتناعِ. إنَّهُ أمرٌ ذو تداعياتٍ كثيرة، واستحقاقاتٍ ثقيلةٍ وبيلةٍ. فهو يعني تغييرَ معتقدٍ راسخٍ رسوخَ السنين، وتغييرُهُ سيواجههُ الناسُ بالرَّفْضِ والمقاومةِ.

لم يقل الله تعالى: (وإذْ وَثَّقَ اللهُ مِيثاقَ النبيينَ)، ولو قالَ ذلكَ لكانَ المعنى: إخبارُ اللهِ لنا بوقوعِ الخبرِ، على سبيلِ الإبلاغِ بقصدِ التذكيرِ والتنبيهِ لا أكثرَ. ولكنَّهُ لمَّا قالَ:(وإذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ النبيينَ)، دلَّ على أَنَّ المشهدَ أكبرَ مِن أَنْ يكونَ خبرًا يُحكَى، وأعظمَ من أَنْ يكونَ بَلاغًا عابرًا.

فالفعلُ (أَخَذَ) بما يحمِلُهُ من معنًى محوريٍّ دالٍّ على الحَوْزِ والإحاطةِ والجمعِ، انْضافَ إليهِ معنى التوثيقِ والتوكيدِ ليرسم صورةَ مقاومةِ المشركينَ، وتعنُّتِ أهلِ الكتابِ ورفضِهم الدينَ الجديدَ. فكان لا بُدَّ من خطابٍ مؤثرٍ ومقنعٍ، يُراوحُ بينَ الوعدِ والوعيدِ، والترغيبِ والترهيبِ. كانَ المَشهدُ يتطلبُ أكثرَ من الإبلاغِ باستعمالِ الفعلِ المُباشرِ المختصِّ (وَثَّق)، فجاءَ بالفعلِ (أَخَذَ) ومَا فيهِ مِن معنى الإحاطةِ والقوةِ والتَّمكينِ ليؤكِّدَ قيمةَ هذا العَهْدِ ولِيُلْزِمَ أصحابَهُ من النبيينَ بإقرارِهِ وإنفاذِهِ في أنفسِهم وأقوامِهم. ولا يخفى ما لعناصرِ التركيبِ اللغويِّ من أثرٍ في توجيهِ هذه الدلالةَ، فقد اقترنَ لفظُ الفعلِ (أَخَذَ) بالمفعول بهِ (ميثاقَ) مضافا إليه لفظ (النبيينِ) ولفظ الفعل (اشْهَدُوا) ولفظ (الشَّاهدينَ) لتثبيت معنى التوثيق والتأكيد.

٢. الإِصَابَةُ بِالأَذَى: ﴿ Ô وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾(٣).

(١) آل عمران: ٨١.

(٢) ينظر: الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي (٧٤٥هـ/١٣٤٤م)، **البحر المحيط في التفسير**، المحقق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ، ٣/٢٣٥.

(٣) الأنعام: ٤٢.

يُخْبِرُ الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم، تسليةً له عن كفرِ قومِهِ وجحودهم، وتحذيرا لهم في الوقت نفسه، أنَّهُ أرسلَ الرسلَ والأنبياءَ إلى الأقوامِ السابقةِ فكذبوهم فامتحنهم الله بابتلاءاتٍ منها شدةُ الفقر، والضيقُ في المعيشةِ، وأنواعٌ من الأسقامِ والعللِ العارضةِ في الأجسام(١).

جاء الفعل (أَخَذَ) في الآية السابقة ليصف درجة من العقوبة التي أوقعها الله على الكافرين؛ واستعمل في وصف هذه العقوبة الفعل (أَخَذَ) الذي حمل معنى: الإصابة بالأذى، قال الفخر الرازي: "وَقَالَ الحَسَنُ (البَأْسَاءُ) شِدَّةُ الفَقْرِ مِنَ البُؤْسِ، (وَالضَّرَّاءُ) الأَمْرَاضُ وَالأَوْجَاعُ"(٢). وهي أولى مراحل العقوبة أوقعها الله على الأمم السابقة، لا انتقاما منهم بكفرهم وعبادتهم الأصنام، ولكن تذكيرا لهم وتنبيها على غفلتهم لعلهم يعودون فيدعون الله أن يخفف عنهم ليستجيب لهم. فالله يريد منهم الإيمان والطاعة، ولكن قَسَتْ قلوبهم وزادوا في إعراضهم وكفرهم.

لم يستعمل التعبير القرآني في هذا السياق ألفاظا دالة على أنواع الأذى التي أصيبوا بها دلالة مباشرة من مثل: أفقرناهم أو أمرضناهم، وإنما عَدَلَ عن هذه الألفاظ، فاستعمل الفعل (أَخَذَ) لما فيه من معنى الحَوْزِ والإحاطةِ؛ ليدل على شمول أولئك الأقوام بالبأساء والضراء، وإحاطتها بهم فيكونوا بذلك عبرة لمن خلفهم من الأقوام. وجاءتْ عناصر التركيب موجهة لإقرار هذا المعنى فكان للفظي (البأساء) و(الضراء) أثر في انتقال الفعل (أخذ) إلى معنى الإصابة بالأذى.

٣. الإبَادَةُ والإهْلَاكُ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾(٣).

في الآية خطاب يدل على إمهال الله للظالمين، فإذا ابتلى الله أقواما بالبأساء والضراء فلم يستجيبوا ولم يؤوبوا أملى لهم، فأبدلهم مكان السيئةِ الحسنةَ، وفتح عليهم الخير والرزق من كل باب لعلهم يرجعون. ومراد الله تعالى من هذا هو الإمهال لهم لعلَّهم يتذكَّرون الله ويوحِّدونه فَتُطَهَّرُ نفوسُهُمْ، لأنّ من النفوس نفوسًا تقودها الشدَّة ونفوسًا يقودها اللين، فلمَّا تمادى هؤلاء بغيهم أبادهم وأهلكهم(٤). قال الفخر الرازي: "عَامَلَهُمْ بِتَسْلِيطِ المَكَارِهِ وَالشَّدَائِدِ عَلَيْهِمْ تَارَةً فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِهِ، فَنَقَلَهُمْ مِنْ تِلْكَ الحَالَةِ إِلَى ضِدِّهَا، وَهُوَ فَتْحُ أَبْوَابِ الخَيْرَاتِ عَلَيْهِمْ، وَتَسْهِيلُ مُوجِبَاتِ المَسَرَّاتِ وَالسَّعَادَاتِ لَدَيْهِمْ فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِهِ

(١) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد (٣١٠هـ/٩٢٢م)، **جامع البيان في تأويل القرآن**، المحقق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠٠ م، ٣٥٤/١١-٣٥٥.

(٢) الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن الملقب بفخر الدين (٦٠٦هـ/١٢٠٩م)، **مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠ هـ، ٥٣٣/١٢.

(٣) الأنعام: ٤٤.

(٤) ينظر: ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد (١٣٩٣هـ/١٩٧٢م)، **التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»**، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤هـ، ٢٣٠/٧-٢٣١.

أَيْضًا"[1] فقد ظنوا أن هذا الخير الذي أصابهم كان باستحقاقهم. وآنئذٍ علم الله مَوْتَ قلوبهم وأنه لا يُرجى لها انتباهٌ وأَوْبَةٌ، فكان حقا عليه إبادتهم وإهلاكهم.

استعمل التعبير القرآني الفعل (أَخَذَ) لمعنى: الإبادة والإهلاك، ولم يقل: أهلكهم أو أماتهم، فقد يكون ذلك بترقب منهم أو احتياط لما هو قادم. ولكنَّه لما عبَّر عن المعنى بالأَخْذِ دَلَّ على أنَّ أمرَ إبادتهم وإهلاكهم كانَ خاطفًا سريعًا على غير ترقُّب وحذَرٍ منهم. ويدل على ذلك قوله تعالى في الآية التالية: (فَقُطِعَ دَابِرُ القَوْمِ الذِينَ ظَلَمُوا) عطفا على (أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً). فهذا الأخذ كانت نتيجته قطعا واستئصالا لهم بالكلية. وهنا يبرز المعنى المحوري للفعل (أَخَذَ) وهو الحَوْزُ والجَيْبُ والجَمْعُ، فقد وصل أمر إهلاكهم واستئصالهم إلى تتبُّعِ أدبارهم بحيث لا يبقى منهم أحد. وهنا يبرز أثر السياق اللغوي جليا في توجيه الدلالة، فالتركيب الشرطي لـ (لمَّا) مع الأفعال(نَسُوا) و(ذُكِّروا) وجوابها (فَتَحْنَا) هَيَّأَ لهم الدَّعَةَ والراحةَ والنسيانَ، ثم جاءت (إذا) لتأكيدِ ذلكَ، فقد (فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا) فكان الإهلاك (بَغْتَةً) ونتيجته أنهم (مُبْلِسُون).

٤. السَّلْبُ والحِرْمَانُ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾[2].

في الآية خطاب يراوح بين الترهيب والترغيب، وبين الخبر والإنشاء. يتوعَّدُ الله المكذِّبين ويُحذِّرُهم بَأْسَه: سَمْعٌ يُسْلَبُ تتبعثرُ أجزاؤُه فلا يعودُ صالحا لشيء، وبَصَرٌ يُنْتَزَعُ يَهِيمُ أَصْحَابُهُ على وجوهِهم، وقَلْبٌ يُخْتَمُ عليه فلا يَفْقَهُ صاحبه شيئا. من ذا سيعيد إليهم ما سُلِبوا؟ في ظاهره تساؤلٌ، وفي حقيقته ما يَعْصِفُ بالذِّهنِ ويستثيرُ مَكامنَهُ، ويبثُّ في أرجائِه الحَيرةَ والخوفَ والضَّعفَ والحِرمان.

والخطاب في الآية تهديد ووعيد لكفار قريش إن هم لم يؤمنوا ويعتبروا بما حلَّ بالأمم السابقة. فقد سمعوا من نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم أخبارَهُم، وهم يبصرون الآياتِ الدامغاتِ على صدق نبوَّته، واختار السمع والبصر والقلوب لأنها أدوات الإنسان في الفهم والتفكر والعقل، فالله جلت قدرته يهددهم بسَلْبِها، وحرمانهم منها، إنْ هم أصروا على كفرهم وجحودهم. وكان الخطاب بالفعل(أَخَذَ) أبلغَ في التهديد والوعيد، فقد أضاف معاني أكثر صرامة إلى المشهد الخطابي؛ فالأَخْذُ حَوزٌ وجَيْبٌ وجَمْعٌ، فلم يقل: لو أصمكم وأعماكم، ولو قال لكان المعنى أنه أوقع عليكم الصمم والعمى، وهذا لا يكفي في بيان هول المشهد وشدته، فكان الفعل (أَخَذَ) بما فيه من معنى الحَوْزِ والإحاطةِ أقدر في بيان أنَّ هذه العقوبة فيها نزع للسمع والبصر لا هوادة فيه، وحرمان لا يبقي أثرا. إنَّه نزع بالكلية وحرمان بالإطلاق،

(١) المصدر السابق، ٥٣٤/١٢.

(٢) الأنعام: ٤٦.

فلا إله من الآلهة التي يعبدونها قادر على أن يرفع عنهم العذاب إن شاء الله أن يعذبهم. قال القُشَيري: "عَرّفَهُم مَحَلَّ عَجْزِهم، وحقيقةَ حاجَتِهم...وحذَّرهم فقال: إنْ لَمْ يُدِمْ عليهم نعمة أسماعهم وأبصارهم، ولم يُوجِبْ لهم ما ألبَسَهم من العوافي، فمَنْ الذي يَهَبُ ما سَلَبَهُ، أو يَضَعُ ما مَنَعَهُ، أو يعيدُ ما نَفَاهُ، أو يَرُدُّ ما أَبْدَاه؟"(١).

٥. الإمْسَاكُ والتَّعْنِيفُ: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(٢).

كانَ موسى عَليهِ السَّلامُ يحملُ ألواحَ التَّوْرَاة، فألقاها ووَضَعَهَا بِالأَرْضِ غَضَبًا عَلَى مَا فَعَلَهُ قَوْمُهُ مِنْ عِبادَةِ العِجْلِ وَحَمِيَّةً لِدِينِ اللَّهِ(٣). هالَهُ ما يرى، وأخرجتْهُ مقتضياتُ طبيعتِه البشرية عن حِلْمِهِ وأَناتِهِ. أَمْسكَ بِرأسِ أخيه يّجُرُّه إليه، يلومُهُ ويعنِّفُه؛ فقد كانَ الحدثُ أعظمَ من أن يُسكتَ عنه. ولعلَّها فرصةٌ مناسبة ليرسِّخَ في وعي قومِهِ قِيَمَ الدِّينِ وقداسةَ تعاليمِهِ.

ولو قال سبحانه: (أَمْسَكَ بِرَأْسِ أَخِيهِ)، لَمَا تَجاوَزَ المعنى صورةَ حَدَثٍ لا عناصِرَ فيه ولا تَفاعُلَ. لكنّه قال: (أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ)، وفي هذا القولِ من المعنى ما ليس في القَوْلِ المُفترضِ. فقد أضافَ الفعلُ (أَخَذَ) في الآيةِ الكريمةِ بما فيه من معنى الحَوْزِ والإحاطةِ إلى الإمساكِ معنى اللَّومِ والتعنيفِ، للتعبير عن القهر والدهشة لتَحَوُّلِهم عن عبادة الله تعالى إلى عبادة العجل. فلم يكن احْتَيَازُهُ رأسَ أخيه حدثا يحكي فعلا، بل كان يرسم مشهدا تآلَفَتْ عناصرُهُ لتجعلَ من الحدثِ قصةً وحكايةً تُطِلُّ على استقباحِ الذَّنْبِ، وتتوعَّدُ من يأتيه بِشَرٍّ وَبيلٍ. وتبرزُ عناصرُ السياقِ اللغويِّ مرةً أخرى لتُوَجِّهَ إلى دلالةِ الإمساكِ والتعنيفِ، فإيقاعُ الفعل (أَخَذَ) على (رَأْسِ أَخِيهِ) و (يَجُرُّهُ) أكدَّ هذا المعنى، ورسمَ صورةَ الإمساكِ والتعنيفِ الذي ظهر من موسى عليه السلام تجاه أخيه هارون.

٦. الخَلْقُ والإيجَادُ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾(٤).

اختلف العلماء في تفسير هذه الآية، ولعلَّ أكثرَ ما قيلَ فِيها ما نُقِل عَنِ ابْنِ عَبَّاس قَوْلُه: "أَخْرَجَ اللهُ مِنْ ظهرِ آدمَ ذُريَّتَهُ، وأَراهُ إيَّاهم كهيئةِ الذَّرِّ، وأَعْطاهُم مِنَ العَقْلِ، وقالَ: هؤلاءِ وَلَدُكَ آخُذُ عليهِم

(١) القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك (٤٦٥هـ/١٠٧٢م)، **لطائف الإشارات (تفسير القشيري)**، المحقق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، ٤٧٣/١.

(٢) الأعراف: ١٥٠.

(٣) ينظر: الأندلسي، **البحر المحيط في التفسير**، ١٨١/٥.

(٤) الأعراف: ١٧٢.

الميثاقَ أَنْ يعبدوني"[١]. وإنَّما أَنْسَانَا اللهُ ذلكَ فِي الدنْيَا ليصِحَّ الاختبارُ، ولا نكونُ كالمُضطرينَ. والفائدةُ: عِلْمُ آدمَ، وما يحصلُ له من السرورِ بكثرةِ ذريتهِ[٢].

لم يستعمل التعبير القرآني في الدلالة على معنى الخَلْقِ والإيجَادِ كلماتٍ مِنْ مثل: خَلَقَ، أو وَلَّدَ، أو أَوْجَدَ. فمعنى الخَلقِ والإيجادِ على نَحْوِ ما يَتَوالدُ الأبناءُ من الآباءِ ترجمةٌ لِفكرةِ الحَدَثِ لا أكثر. عَمليةٌ بيولوجيةٌ لا تَسْتوقفُ ولا تثيرُ فضولًا بسببِ طولِ معايشةِ النَّاس لها. وليسَ لها في هذا السِّياقِ بابٌ على القُدرةِ والإعجازِ. ولكنَّه عِنْدَما قالَ: (وإِذْ أَخَذَ ربُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ من ظُهُورِهِم ذُريَّتهم)، كَأَنَّا بِها صُورةٌ تُزاحِمُ الصُّورةَ البيولوجيةَ وتُنَحِّيها. فالمشهدُ هنا يَحْكي حِكْمةً وقدرةً إعجازيَّةً. والمقصودُ بالخلقِ هنا النَّشْأةُ الأُولى والخَلْقُ الأولُ، وما يحيط بذلك من تجلياتِ القدرة الإلهية.

وقد خَدمَ الفعل (أَخَذَ) بما يحمله من معنى محوري دالٍّ على الحَوْزِ والإحاطةِ والجمعِ هذا المعنى الإعجازيَّ المُتمثِّلَ بخلقِ اللهِ لِذريَّةِ آدمَ وإيجادِهم وجمعهم له لِيَراهُم ويَأْخُذَ العهدَ منهم على عبادتِهِ سبحانه. وتضافرت معه عناصر السياق اللغوي (ظُهُورهم) و (ذُريَّتهم) لتوجيه هذا المعنى، فَالأَخْذُ هنا ليسَ مُجَرَّدَ خَلْقٍ فَحَسْبُ، على ما في الخَلْقِ الذي يكونُ في بُطونِ الأُمهاتِ من قدرةٍ إعجازيَّةٍ عظيمةٍ، إنَّه خَلْقٌ وإيجادٌ لذريَّةِ آدمَ على طولِ الدَّهرِ. وهذا مشهدٌ يفوقُ التَّصورَ ولا يدركه عقلُ الإنسانِ القاصرِ.

٧. الإِتْمَامُ والاسْتِوَاءُ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٣].

صورت هذه الآية للناس حال الدنيا في سرعة انقضاءِ زمانها وزوال نعيمها، بعد إقبالهم عليها واغترارهم بها واطمئنانهم إليها، بصورة ما على الأَرض من أنواع النباتات التي زالت بهجتها ونضارتها فجأَة، وصارت حطاما ولم يبق لها على الأرض من أَثر، بعد أَن ترعرعت ونمت وقويت سيقانها وتزينت الأرض بألوانها المختلفة، وأوشك الناس أن يجنوا قطافها وظنوا أنها قد سلمت لهم من المهالك[٤].

(١) النيسابوري، أبو القاسم نجم الدين محمود بن أبي الحسن بن الحسين (٥٥٠هـ/١١٥٥م)، **إيجاز البيان عن معاني القرآن**، المحقق: الدكتور حنيف بن حسن القاسمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ، ٣٤٦/١.

(٢) ينظر: المصدر السابق، ٣٤٧/١.

(٣) يونس: ٢٤.

(٤) ينظر: الزمخشري ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمرو بن أحمد (٥٣٨هـ/١١٤٣م)، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، تحقيق: عادل أحمد وعلي معوض وفتحي حجازي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ، ٣٤٠/٢.

استعمل التعبير القرآني الفعل (أَخَذَ) في وصفِ كَمالِ زينةِ الأرض وتَمَامِ حُسْنِها، فقال: (حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَها وَازَّيَّنَتْ)، ولم يقل: (حَتَّى إذا تَزَخْرَفَتْ)؛ لأنَّ الأمر يستدعي أكثرَ من أن يكونَ التَّزَخْرُفُ حَدَثًا عابرًا مقصودًا لذاته. الأمرُ يستدعي بيانَ حالةِ التَّمامِ والاسْتِوَاءِ التي وصلت إليها الأرض في التَّزَيُّنِ. وقد جاء هذا المعنى ليُؤَشِّرَ على ما تعنيه الأرضُ وهي على هذه الحالةِ لأهلها من قيمةٍ ماديةٍ ومعنوية، ولِيُنَبِّهَ على مدى حبِّهم لها، وحرصِهم عليها، واستعدادِهم لحمايتِها وتحصينِها، وتمكينِ أنفسِهم بالقُدرةِ على الدفاعِ عنها ومنعِ أيِّ معتدٍ عليها.

الفعل (أَخَذَ) بما يحمله من معنى محوري دالٍّ على الحَوْزِ والإحاطةِ، مضافا إليه عناصر السياق اللغوي (زُخْرُفَهَا) و (ازَّيَّنَتْ) اتَّسَع ليحملَ دلالةَ التَّمام والاستواء، فالأرضُ لم تتزخرف وتتزين، بل أَخَذَتْ زُخْرُفَهَا وازَّيَّنَتْ، فَحَازَتْ أشكالَ الزِّينةِ والخُضْرَةِ والبَهاءِ كلِّها، وأحاطت بِصُوَرِ النَّماءِ والخَيرِ والعَطاءِ، فَتَمَّتْ على سُوقِها في أبهى صُوَرِها واسْتَوَتْ على خَيْرِ ما يُحِبُّ أهلها أن يكون الاسْتِوَاءُ. فلمَّا بَلَغَتِ الغايةَ في ذلكَ أَتاها أَمْرُ اللهِ فَجَعَلَها حَصيدًا مَقْطوعًا.

٨. اللُّزُومُ والاعْتِرَاءُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[١].

تتحدثُ الآياتُ السابقة عن فريقٍ من الناس يتظاهرون بالدعوة إلى الإصلاح، ويستعملون أساليبَهم الزائفة، وعباراتِهم البرَّاقة في خداع الناس لكسب ثقتهم، والاطمئنان إليهم. فإذا نُصِحَ الواحِدُ منهم بعدم استغلالِ ذكائه وعلمه وبلاغته في التضليل والإفساد أَخَذَتْهُ الأَنَفَةُ والكبرياءُ، فَلَجَّ في الضلالِ والعنادِ، لأَنَّهُ يرى نفسه فوق نصيحةِ الناصحين، ونَقْدِ الناقدين[٢].

استعملَ التعبير القرآنيُّ الفعل (أَخَذَ) ليَصِفَ حالةَ هذا المنافقِ الذي تَلَبَّسَهُ الإِثْمُ واعْتَرَاهُ الكِبْرُ حتى لم يعد يرى شيئا إلا من خلاله. وقد اتَّسع المعنى المحوري للفعل (أَخَذَ) ليَدُلَّ على معنى اللُّزومِ والاعْتِرَاءِ؛ فحالة هذا المنافق أَنَّ الكِبْر قد لَزِمَهُ واعْتَرَاهُ وأَحاطَ به بسبب الإثم الذي ملأ قلبه فمنعه عن قبول النصح. الفعل (أَخَذَ) تآزر مع عناصر السياق اللغوي (العِزَّة) و (الإِثْم) ليَتَنَبَّأَ بكل هذا، ونَحَا بالمعنى المحوري نحو هذه المعاني ليصفَ المشهد بدقة، ويرصدَ تفاعلاتِهِ وإرهاصاتِهِ.

(١) البقرة: ٢٠٤-٢٠٦.

(٢) ينظر: الأندلسي، **البحر المحيط في التفسير**، ٢/٢٣٢-٢٣٣.

٩. القَهْرُ والغَلَبَةُ: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾(١).

ذهب كثير من المفسرين إلى أن آية الكرسي هذه تضمنت الاسم الأعظم لله تعالى وذلك بلفظي (الحَيّ والقَيُّومِ)، فهذان اللفظان أحاطا بجميعِ مباحثِ العلمِ الإلهيِّ، فهو الحيُّ الذي لا يموتُ، القائمُ بتدبيرِ أمرِ عبادِهِ، يَكْلَؤُهم ويحفظُهم ويرزقُهم. ثُمَّ إنَّه تَعالى لَمَّا بين أَنَّهُ حَيٌّ قَيُّومٌ أَكَّدَ ذلك بِقَولِهِ: لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ، والمعنى: أَنَّهُ لا يَغْفُلُ عن تدبيرِ الخَلْقِ، فهو سبحانه قَيِّمُ جَمِيعِ المُحْدَثَاتِ، وقَيُّومُ المُمْكِنَاتِ، فَلا يُمكِنُ أَنْ يَغْفُلَ عَنْ تدبيرهم.(٢)

وقد استعملَ التعبيرُ القرآنيُّ في توكيدِ قَيُّومِيَّتِه جَلَّ وعَلا وكَمالِ حياتِهِ الفعلَ (تَأْخُذُ) منفيًّا بلا، فقال: لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ، ولم يقل: لا يَوْسَنُ ولا يَنامُ، ولو قالَ لكانَ النَّفيُ للسِّنَةِ والنَّوْمِ بوصفهما اخْتِيَارَيْنِ منه جلَّ وعلا وطَوْعًا لإرادتِهِ. وليس في ذلك ما يشيرُ إلى نفي السِّنَةِ أو النَّومِ بوصفهما فِعْلَيْ غَلَبَةٍ وقَهْرٍ. ولكنَّهُ لمَّا أرادَ نفيَ السِّنَةِ والنَّومِ بالكليَّةِ، سواءً أكانا بالغَلَبَةِ أم بالاخْتيارِ، استعملَ صيغةَ الفعل المضارعِ (تَأْخُذُ)، فهذا الفعلُ المَذْخُورُ بمعاني الحَوْزِ والإحاطةِ والتَّمَكُّنِ دَخَلَ عليهِ النَّفْيُ فصارَ معناهُ دالًا على القَهْرِ والغَلَبَةِ. والمعنى السلبيُّ إذا نفيناه في حالِ كونِهِ غالبًا فَمِمَّا يُفْهَمُ ضِمْنًا انْتِفاؤهُ إذا كان طَواعِيَةً واخْتيارًا. والمعنى آنَئِذٍ يَشْمَلُ الأَخْذَ بالقهرِ والغلبةِ، والأَخْذَ بالاختيارِ؛ فهو جلَّ وعلا لا يناله النُّعاسُ ولا النَّومُ لا غَلَبَةً ولا اختيارًا. فَنَفَى ما يَعْرِضُ أولا وهو النعاسُ، ثم نَفَى ما يَتْبَعُهُ وهو النومُ، وبعبارةٍ أخرى: هو تَرَقٍّ في نَفْيِ النَّقْصِ عنه سبحانَهُ، فإنَّ مَنْ لا يغلبُهُ النعاسُ قد يغلبُهُ النومُ لأنه أقوى، فَنَفَى النَّومَ بعد نَفْيِ النعاسِ، وهذا تَرَقٍّ مِنْ نَفْيِ الأَضْعَفِ إلى نَفْيِ الأَقْوَى. لقد تآزرتْ جميعُ هذهِ المكوناتِ السياقيةِ التركيبيةِ لتثبيتِ هذا المعنى وإقرارِهِ في الفعل(تَأْخُذُ).

١٠. المُصَادَرَةُ والاسْتِيلَاءُ: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾(٣).

أَفَادَتْ الآياتُ السابقةُ لهذه الآيةِ أَنَّ سيدنا موسى عليه السلام قَدْ نَفِدَ صبرُهُ مِنْ رؤيةِ تلك الأحداثِ التي حدثت من الخَضِرِ عليه السلام ولم يَجِدْ لها مُبَرِّرًا ظاهرًا يقتضيها، وأَنَّ الخَضِرَ اضْطُرَّ لإيذائِهِ بمفارَقَتِهِ لنَفَادِ صبرِهِ، وعدمِ تَحَمُّلِهِ ما يراه حتَّى تنتهيَ رحلتُهُمَا إلى غايةٍ أبعدَ مما وصلتْ إليه، لكي

(١) البقرة: ٢٥٥.

(٢) ينظر: الرازي، **مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)**، ٧/٧. والشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله اليمني (١٢٥٠هـ/١٨٣٤م)، **فتح القدير**، دار ابن كثير، دمشق، دار الكلم الطيب، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ، ٣١١/١.

(٣) الكهف: ٧٩.

يخبرَهُ في نهايتها عن كثيرٍ من أسرارِ الغدِ التي يُخفيها الله تعالى عن عباده، ويختصُّ بِإعلامِهَا بعضَ أَصْفِيَائِهِ. فقد أخبرَهُ في هذه الآيةِ عن حالِ السفينةِ التي خَرَقَهَا، إذ كانت لضُعفاءَ من الناسِ يعملون في البحرِ ويكسبونَ رزقَهُمْ بها عن طريقه، ولا يقدرونَ على مُدَافَعَةِ الظَّلَمَةِ عن أَنفسِهِم لضَعْفِهِم، فأرادَ بخَرْقِها أَنْ يُحْدِثَ فيها عَيْبًا يمنعُ الملكَ الظالمَ من مُصَادَرَتِها والاستيلاءِ عليها لوجودِ هذا العيبِ فيها، فالخَضِرُ لم يُرِدْ أنْ يُغْرِقَ أَهلَها كما تَوَقَّعَ موسى(١).

استعملَ التعبيرُ القرآنيُّ الفعلَ (يَأْخُذُ) للدلالة على معنى المُصَادرةِ والاسْتِيلاءِ. فالمعنى المحوريُّ للفعلِ (أَخَذَ) وما يَحْمِلُهُ من دلالةِ الحَوْزِ والإحاطَةِ اتَّسَعَ لمعنى المُصَادَرَةِ والاسْتِيلَاءِ. فقد امتَدَّ المعنى المحوريُّ ليضيفَ مَعَانيَ إضافيَّةً فيها القُوَّةُ والاستيلاءُ والمصادرةُ عُنْوَةً. إنَّ الطاقةَ التوليديةَ المُتَمَثِّلَةَ بالمعنى المحوريِّ للفعلِ (أَخَذَ)، ينضافُ إليها عناصِرُ السياقِ مجتمعةً وأبرزها الحال(غَصْبًا)، هي التي تسمحُ لهذا الفعلِ بالتَّشَكُّلِ والتَّوَسُّعِ في معانٍ عديدةٍ تُؤَدِّي الغَرَضَ المقصودَ وتصيبُ المعنى المنشودَ في السياقِ القرآنيِّ.

١١. المَنْعُ والاسْتِيلَاءُ: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

في الآيةِ بيانٌ لِحَدِّ جريمةِ الزِّنا إذا وَقَعَتْ من غيرِ المُحْصنِ، وفيها دعوةٌ إلى تطبيقِ حدِّ اللهِ في الزانيةِ والزاني دون رَأْفَةٍ أو رحمةٍ بهما برفعِ العقابِ عنهما أو إنقاصِهِ أو التهاونِ فيه. فالرأفةُ في حدودِ الله تُعَطِّلُ أَحكامَ الدِّينِ، وإنَّما شَرَعَ اللَّهُ الحَدَّ اسْتِصْلاحا، فكانت الرَّأْفَةُ في إقامتِهِ فَسَادا وإفْسَادا(٣).

استعملَ التعبيرُ القرآنيُّ في التأكيدِ على ضرورةِ إقامةِ الحدِّ في الزانيةِ والزاني الفعلَ (تَأْخُذ) مسبوقا بلا الناهية ومتبوعا بالمصدر (رَأْفَة)، فقال: (وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ)، فالنهيُ لا يَتَعَلَّقُ بالرأفةِ، ولذا لم يقل: (لا تَرْأَفُوا بهما)؛ لأنَّ الرأفةَ شعورٌ إنسانيٌّ يقعُ في النفسِ دون اختيار. ولما كان كذلك، أوقعَ النهيَ على الفعلِ (تَأْخُذ) للدلالةِ على معنى المَنْعِ والاستيلاءِ. والمعنى: لا تَمْنَعْكُم الرأفةُ بهما، ولا تَسْتَوْلِي عليكم فتضعفوا عن إقامة الحد.

١٢. الاسْتِرْدَادُ والمُعَاوَدَةُ: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾(٤).

(١) ينظر: الشوكاني، **فتح القدير**، ٣/٣٥٨-٣٥٩.

(٢) النور: ٢.

(٣) ينظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ١٨/١٥٠.

(٤) النساء: ٢٠.

الآية خطاب للأزواج الذين اختاروا فراق أزواجهم دون نشوز منهن أو إساءة بأن لا يستردوا شيئا من المال الذي فرضوه لأزواجهم مهما قل أو كثر، فإن فعلوا فإن في ذلك بهتانا وإثما مبينا.

وقد استعمل التعبير القرآني الفعل (تَأْخُذُوا) في الآية مرتين؛ لِيُنَبِّهَ على حُرمةِ استرداد شيء من ذاك المال الذي فرضه الأزواج لأزواجهم. ثُمَّ إنَّه لم يستعمل الفعل (يَسْتَرِد أو يُعِيد) في السياق لما في الفعل (أَخَذَ) من معنى السَّلْبِ والنَّزْعِ، ولِيَعْلَمَ الأزواجُ أنهم إن فعلوا شيئا من ذلك فإنَّ استردادهم لهذا المال هو نَزْعٌ وسَلْبٌ لشيءٍ ليس من حقِّهم. ولذلك قال (أتأخذونه بهتانا) فقد سمى ذلك الأخذ (بهتانا) وأنكر عليهم فعله. وقد كرر هذا الإنكار متعجبا في الآية التي تليها واستعمل الفعل (أَخَذَ) فيها مرتين أيضا، قال تعالى: (وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا)[1] لِيُبَيِّنَ عِلَّتين لوصفِ ذلك الأَخْذِ بالبهتان، أما العلةُ الأولى: فلأن ذلك المال إنما دفعه الزوج مهرا لزوجه ليفضيَ إليها، ويَسْتَحِلَّ منها ما كان محرما عليه، والعلةُ الثانية: هي ذلكم الميثاق الغليظ الذي أخذته الزوجة بإشهاد الشهود عليه وهو عقد النكاح[2]. انظرْ إلى عناصرِ السياقِ اللغويِّ(اسْتِبْدَال) و(مَكَان) كيفَ وَجَّهَتْ معنى الفعلِ(تَأْخُذُوا) إلى معنى الاستردادِ والمعاودةِ، فهذانِ اللفظانِ يَشِيانِ بالمعنى المرادِ ويكشفانِ عنه.

١٣.القَتْلُ والحَبْسُ والتَّعْذِيبُ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[3].

في الآيةِ خطابُ تهديدٍ ووعيدٍ لقُرَيْشٍ إنْ هم استمروا على الكفرِ والعصيانِ وإيذاءِ الرسولِ. فمصيرهم سيكونُ كمصيرِ الأقوامِ السابقةِ الذينَ كفروا وتمادوا في الكفرِ إلى حَدٍّ أَنَّهم عَزَموا على أَخْذِ أنبيائِهم ليحبسوهم ويعذبوهم ويقتلوهم. ولكنَّ الله كانَ لهم بالمرصادِ فَأَخَذَهُمْ وأهلكهم ليكونوا للناسِ من بعدهم عبرةً.

استعمل التعبيرُ القرآنيُّ الفعلَ (يَأْخُذُ) للدلالةِ على معنى الحبسِ والعذابِ والقتلِ. ولم يقل: (وَهَمَّتْ كُلُّ أَمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَقْتُلُوهُ أَوْ يَأْسِرُوهُ أَوْ يُعَذِّبُوهُ)، استعملَ كلمةً واحدةً عَبَّرَتْ عن معنى يشملُ هذه الأفعالِ المُنْكَرَةِ منهم جميعِهَا. وفي ذلك تصويرٌ صادقٌ لحالِ تلكَ الأُممِ معَ رُسِلِهَا.

إنَّ استعمالَ الفعلِ (يَأْخُذُ) في هذا السياقِ حملَ دلالةً واسعةً جعلت المعنى قابلًا للانفتاحِ على احتمالاتٍ متعددة. فقد يكونُ القتلَ، وهو مُنْتَهَى ما يمكنُ أَنْ يَفْعَلُوهُ، وقد يكونُ الأَسْرَ، وقد يكونُ العذابَ. وفي استطلاعنا لنماذجِ التاريخِ من أحوالِ الأممِ السابقةِ مع أنبيائِهَا نجدُ أَنَّ هذه الأفعالَ

(١) النساء: ٢١.

(٢) ينظر: الشوكاني، **فتح القدير**، ٥٠٨/١.

(٣) غافر: ٥.

جميعَهَا وقعتْ منهم بِحَقِّ أنبيائهم. الفعلُ (يَأْخُذُ) خدمَ السياقَ فوسَّعَ من دائرةِ الاحتمالاتِ ذاتِ الطبيعةِ الواحدةِ أو المتقاربةِ، ولا شَكَّ أنَّ عناصرَ السياقِ (هَمَّتْ) و(عِقَاب) دفعت إلى توجيهِ الدَّلالةِ المُتَحَصِّلَةِ من الفعل (يأخذ).

١٤. التَّحْصِيلُ والجَمْعُ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(١).

في الآيةِ خطابٌ يأمرُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم أن يأخذَ من أموالِ المُخَلَّفِينَ عن الخروجِ في معركةِ تبوك كفارةً تتطهرُ بها نفوسُهم، بعد أن قَبِلَ الله توبتَهم، وعَلِمَ صدقَ أَوْبَتَهُم. ولَمَّا كانَ من شَرْطِ التَّوبةِ تَدَارُكُ ما يمكنُ تَدَارُكُهُ مِمَّا فَاتَ، وكانَ التَّخَلُّفُ عن الغَزْوِ مُشْتَمِلًا عَلَى أَمرين هما عَدَمُ المُشَارَكَةِ في الجِهادِ، وَعَدَمُ إِنْفَاقِ المالِ في الجِهادِ، جاءَ في هذه الآيةِ إِرشَادٌ لِطريقِ تَدَارُكِهِمْ ما يُمْكِنُ تَدَارُكُهُ مِمَّا فَاتَ، وهو نَفْعُ المسلمِينَ بِالمالِ، فَالإِنْفَاقُ العَظِيمُ عَلَى غزوةِ تَبُوكَ اسْتَنْفَدَ المالَ المُعَدَّ لِنَوَائِبِ المسلمِينَ، فَإِذَا أُخِذَ مِنَ المُخَلَّفِينَ شَيْءٌ مِنَ المالِ انْجَبَرَ بِهِ بَعْضُ الثَّلْمِ الذي حَلَّ بِمالِ المسلمِينَ(٢).

والأَخْذُ هنا ليس تناولُ هذا المَالِ وحَسْبْ، إنَّهُ أَخْذٌ تَقْتَضيه عِلَّةٌ. وهو شكلٌ من أشكالِ الاستِحْقاقِ. إنَّهُ ليس صدقةً بمعناها المَعْهودِ الذي يُوجِبُ الفَضْلَ، وفيها يُخرِجُ المُتَصَدِّقُ مالا يتقرَّبُ به من رَبِّهِ من غيرِ تكليفٍ ولا إلزام. إنَّهُ كفارةٌ أَوْجَبَها ذَنْبٌ اقْترفوه. وكأنَّه عَطَاءٌ مُسْتحقٌّ، يُكَفِّرُ الإنسانُ به عن فِعْلَةٍ ما زالت تَحُوكُ في صَدْرِه.

الفعل (خُذْ) اتَّسَعَ معناهُ المحوريُّ الدالُّ على الحَوْزِ والإحاطةِ ليدلَّ على معنى التَّحصيلِ والجمعِ، ولِيَنْتَقِلَ من معنى التَّناوُلِ غَيْرِ المُعَلَّلِ، إلى أَخْذٍ للمالِ وجبايةٍ له على سبيل الاسْتِحَقاقِ المَفْروضِ ليكونَ تَحْصيلُهُ في بيتِ المالِ منعةً للمسلمين. واللافت للنظر أن الآية التي تلي هذه الآية استُعمِل فيها الفعل (أَخَذَ) بمعنى مختلف، إذ يقول سبحانه عن هؤلاء المُخَلَّفِين: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(٣)، فبعد أن أمرَ نبيَّهُ بالفعل(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ) ليَجْمعَ منهم الأموالَ ويُحَصِّلَها، يُعْلِنُ سبحانَهُ أَنَّهُ يقبلُ التوبةَ ويتوبُ على من تابَ منهم. ثم استعملَ الفعل (أَخَذَ) فقال: (وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ) فَدَلَّ الفعلُ (يَأْخُذُ) على معنى القَبُولِ والرِّضى، فاللهُ يستقبلُ صدقتهم بالرضى، ويفرحُ بعودتهم إلى الحقِّ. يقبلها منهم تطهيرا لأنفسهم من وِزْرِ إِثْمٍ قارَفُوهُ. ولا يمكنُ أنْ نفهمَ هذا الاختلافَ في توجيهِ دلالةِ الفعلينِ إلَّا بالنظرِ إلى المكوناتِ التركيبيةِ السياقيةِ

(١) التوبة: ١٠٣.

(٢) ينظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ٢٢/١١.

(٣) التوبة: ١٠٤.

التي حَلَّا فيها، ففي الآية الأولى جاءَ الفعلُ (خُذْ) على صورةِ الأمرِ، ووقعَ على (مِنْ أَمْوَالِهِم)، وفي ذلكَ بيانٌ لمعنى الجَمْعِ والتحصيلِ، وفي الآيةِ الثانيةِ وقعَ الفعلُ (يَأْخُذُ) مُحَاطًا بـ (يَقْبَلُ التوبةَ) و (التوابُ الرحيمُ) فكانَ معنى الرِّضَى والقَبُولِ.

١٥. الأَسْرُ والحَبْسُ: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[١].

أَعْلَنَ اللهُ تعالى في بدايةِ سورةِ التوبةِ البراءةَ من المشركينَ الذينَ نَكَثُوا عهودَهُمْ مع المسلمين، وأمرَ نَبِيَّهُ والمسلمينَ بإعلانِ هذه البراءةِ أيضا. ثُمَّ أَمْهَلَهُمْ أربعةَ أشهرٍ، هي الأشهرُ الحُرُمُ، يَسِيحُونَ فيها لِيَتَفَكَّرُوا ويتأمَّلوا في أمرِهم، فَإِنْ هم عادوا إلى الحقِّ وأسلموا فلا شيءَ عليهم، وإلا فليس لهم إلا القتلُ والأسرُ والحصارُ حيث وُجِدُوا. فقد قَوِيَتْ شوكةُ المسلمينَ، وحانَ وقتُ تطهيرِ الجزيرةِ العربيةِ من المشركين كافة[٢].

استعملَ التعبيرُ القرآنيُّ الفعلَ (خُذُوهُمْ) بمعنى الأَسْرِ والحَبْسِ، وهو معنى منبثقٌ من المعنى المحوريِّ للفعلِ (أَخَذَ) الدالِّ على الحَوْزِ والإحاطة. فقد سُمِّيَ الأسيرُ أَخِيذًا لأَنَّهُ يَقَعُ في حَوْزِ خَصْمِهِ ومُحِيطِهِ. وقد بَيَّنَّا في التقديمِ أَنَّ الآيةَ نَزَلَتْ في مُشْرِكِي العربِ كلِّهم، وأَنَّ المقصودَ منها التمكينُ للمسلمينَ بِحَوْزِ جزيرةِ العربِ وتطهيرِها من رِجْسِ المشركين. وهذا يَتَّسِقُ مع استعمالِ القرآنِ في هذا السياقِ للفعلِ (خُذُوهُمْ) الدالِّ في معناه المحوريِّ على الحَوْزِ والإحاطة. فالمسلمونَ مأمورونَ في هذه الآيةِ بقتالِ المشركينَ وتَرَقُّبِهِمْ وحِصارِهِمْ في كلِّ بقعةٍ من أرضِ جزيرةِ العرب. فكانَ المناسبُ في هذا المقامِ استعمالَ كلمةٍ تتسعُ دلالتُهَا في الحَوْزِ والإحاطة بما يُنَاسب اتِّساعَ دائرةِ القتالِ والترقبِ والحصارِ. ثُمَّ انظُرْ إلى الفعلِ وهو على صُورَةِ الأمرِ (خُذُوهم) وقد اكتنفتهُ عناصرُ تركيبيةٌ سياقيةٌ وَجَّهَتْ المعنى توجيها دقيقا، فكان قبلهُ (وَاقْتُلُوا المُشْرِكينَ حيثُ وَجَدْتُمُوهُم)، وجاءَ بعدَهُ (واحْصُرُوهم واقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَد). لقد ساهمتْ هذهِ المكوناتُ السياقيةُ في إبرازِ معنى الأسرِ والحبسِ وتجليتِهِ بِصُورَةٍ دقيقةٍ.

١٦. الالْتِزَامُ والعَمَلُ: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾[٣].

---

(١) التوبة: ٥.

(٢) ينظر: رضا، محمد رشيد بن علي (١٣٥٤هـ/١٩٣٤م)، **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م، ١٠/١٤٠-١٤٨.

(٣) الأعراف: ١٤٥.

اختص الله موسى عليه السلام لرسالته، ثم أنزل عليه التوراة مكتوبة في الأَلواح والصحف، وفيها بيانٌ لكل شيءٍ يحتاج إليه بنو إسرائيل لإصلاح شؤونهم في الدين والدنيا من المواعظ، وتفصيل الأَحكام، وبيان الحلال والحرام، والحسن والقبيح، وغير ذلك من أَنواع الهداية والإرشاد(١).

وبعد أن بين لموسى عليه السلام تفصيل ذلك، أمره أن يلتزم بما جاء في الألواح من أحكام وأن يأمر قومه بالعمل بمقتضاها. أمره فقال (خُذْهَا بِقُوَّةٍ)، والأخذ هنا لا يكفي فيه التناول فقط، بل إن عليه أن يتناولها بحرصٍ وعزيمة، وأن يأمر بني إسرائيل بأَن يمتثلوا إلى مواعظها، ويتبعوا أَحكامها وشرائعها البالغة غاية الحسن والكمال.

الفعل (أَخَذَ) يدل معناه المحوري على الحوز والإحاطة، وهو معنى لا شك مقصود في هذه الآية؛ فموسى عليه السلام وقومه مأمورون بحوز هذه التشريعات والأحكام والإحاطة بها وتناولها، ولكن ينضاف إلى هذا المعنى معنى إضافي مقصود بدرجة أعلى وهو الالتزام والعمل بنصوص هذه التشريعات والأحكام المكتوبة في الألواح. والمواظبة بجد على اتباع أوامرها واجتناب نواهيها. ثم ختم الآية بما يشبه الوعيد والتهديد إن هم تخلفوا عن الالتزام والعمل بأحكام التوراة فقال: (سَأُرِيكُمْ دَارَ الفَاسِقِينَ) وهي دِيارُ الكَفَرَةِ والمشركينَ التي كانُوا يَمُرُّونَ عَلَيْها إذا سافروا من منازِلِ عَادٍ وثَمُودَ والقُرُونِ الذينَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ تعالى(٢).

١٧.الاسْتِعَاضَةُ والاسْتِبْدَالُ: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٣).

تَصِفُ الآيةُ الكريمةُ حالَ إخوةِ يوسفَ عليه السلام، وهم يستعطفونَ عزيزَ مصرَ، وهم لا يعرفونَ أَنَّهُ يوسفُ أخوهم. يستعطفونَهُ في أخيهم أَنْ يردَّهُ إليهم فيعودَ معهم إلى أبيهم، ويأخذَ بدلا منه واحدا منهم. ولكنَّ الله مكَّنَ لِيوسفَ عليه السلام في حِيلتِهِ للاحتفاظِ بأخيه الشقيقِ، ورفضَ مبدأ المساومةِ والعِوَضِ الذي عرضه إخوتُهُ عليه(٤).

استعملَ التعبيرُ القرآنيُّ الفعلَ (خُذْ) للدلالةِ على معنى الاستبدالِ والاستعاضة، وجاءَ الفعلُ بصيغةِ الأمرِ ليُبَيِّنَ إخوةُ يوسفَ له جِدِّيَّتَهُم في هذا الطلب. فهم يخشونَ العودةَ دونَ أخيهم؛ إِذْ لهم سابقةٌ مع أبيهم في أخيهم يوسفَ عليه السلام. ثُمَّ جاءتْ هذه الحادثةُ في الأخِ الشقيقِ ليوسفَ. فكيفَ

(١) ينظر: القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري (٦٧١هـ/١٢٧٢م)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٦٤م، ٢٨١/٧.

(٢) ينظر: الرازي، **مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)**، ٣٦١/١٤.

(٣) يوسف: ٧٨.

(٤) ينظر: الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، ٢٠٢/١٦.

سيكونُ موقفهم أمامَ أبيهم؟!. إنَّهم بحاجةٍ أَنْ يبذلوا كلَّ ما يستطيعونَ للظَّفَرِ بأخيهم والعودةِ به إلى أبيهم، ولو كانَ المقابلُ استبدالَ واحدٍ منهم به، حتى ولو كانَ الحبسُ هو المصيرَ المنتظرَ. الفعلُ (خُذْ)، بما فيه من معنى محوريٍّ دالٍّ على الحَوْزِ والإحاطةِ والتَّمَكُّنِ مَعَ مفعولِهِ (أَحَدَنَا) والظرفِ المتعلقِ بِهِ (مَكَانَهُ)، اتَّسَعَ ليدلَّ على معنى الاستبدالِ والاستعاضةِ، فيكونُ الذي يختارُهُ يوسفُ مكانَ شقيقِهِ في حَوْزَتِهِ ومكانِ إحاطتِهِ وتَمَكُّنِهِ. ولكنْ هيهاتَ لهم مطلبا!، فقد مَكَّنَ الله ليوسفَ عليه السلام لتكتملَ أحداثُ هذه القصةِ الخالدةِ عبرَ التاريخِ ليكونَ فيها العِبْرَةُ والعِظَةُ لبني الإنسان.

١٨. المُصَاحَبَةُ والاصْطِفَاءُ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلا﴾[١].

اسْتَهَلَّتْ الآيةُ الكريمةُ باستفهامٍ أفادَ الإنْكَارَ والنَّفْيَ لِبَيَانِ أَنَّهُ لا يوجدُ أحسنُ في الدِّينِ ممن أَخلصَ نفسَهُ وذاتَهُ لله، فلم يعرفْ لها ربًّا سِوَاهُ، ولم يتوجَّه بوجهِهِ لغيرِهِ سبحانه. يفعلُ ذلك كلَّه وهو مُحْسِنٌ في عمله، بأَلَّا يتركَ واجِبًا، ولا يفعلُ مُحَرَّمًا. فَالإنسانُ إذا عَرَفَ بقلبه رَبَّهُ وَأَقَرَّ بِربوبِيَّتِهِ وبِعُبودِيَّةِ نفسِهِ فقد أَسْلَمَ وَجْهَهُ للَّه. وفي الآيةِ تَنْبِيهٌ على أَنَّ كمالَ الإيمانِ لا يحصلُ إلا باتِّباعِ مِلَّةِ إبراهيمَ الذي عرفَ ربَّهُ واستقامَ لأمرِهِ ونهيِهِ وسَلَّمَ بفقرِهِ وحاجتِهِ إليه سبحانه، فآثر عقيدتَهُ في ربِّهِ على نَجَاتِهِ من النارِ، وعَادَى بسبب توحيدِهِ أَبَاهُ، وهَمَّ بذبحِ ولدِهِ امتثالًا لأمرِ مَوْلَاهُ، فاستَحَقَّ بذلك درجةً عاليةً من كرمِ الله وفضلِهِ فاصطفاه خليلًا[٢].

استعملَ التعبيرُ القرآنيُّ في معنى اصطفاءِ الله تعالى لنبيِّهِ إبراهيمَ خليلًا الفعلَ (اتَّخَذَ)، وهو فعلٌ مزيدٌ على صيغةِ الافتعال من الفعل (أَخَذَ). ولم يستعمل الفعلَ (صَاحَبَ أو خَالَلَ) مَثَلًا؛ إذ المُصاحبةُ تقتضي المشاركةَ بين اثنين في الصُّحْبَةِ والمُساواةَ بينهما، وحاشا لله أن يكونَ مساويًا لأحدٍ من خَلْقِهِ، ثُمَّ إنَّهُ لم يقل: صَاحَبَهُ أو خَالَلَهُ، لِمَا يكونُ بين الصَّاحبينِ من احتياجِ أحدِهِما للآخرِ، وقد تَنَزَّهَ الله عن ذلك وعَلَا عُلُوًّا كبيرًا.

ولأجلِ ذلك جاءَتْ المكوناتُ التركيبيةُ السياقيةُ في الآيةِ دالّة على أَنَّ الله إِنَّمَا اتَّخَذَ إبراهيمَ خَلِيلًا بِمَحْضِ الفَضْلِ والإحسانِ وَالكَرَمِ، ولأَنَّهُ لَمَّا كانَ مُخْلِصًا في العبوديَّةِ لا جَرَمَ خَصَّهُ اللَّه بهذا التَّشْرِيفِ العظيمِ. وبذلك يكونُ اختيارُ الفعلِ (اتَّخَذَ) نافيًا لمعنى مُشَارَكةِ الصَّاحِبِ لصاحبِهِ في الفضلِ، واحتياجِ

(١) النساء: ١٢٥.

(٢) ينظر: الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم (٤٢٧هـ/١٠٣٦م)، **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م، ٣٩٢/٣، و الرازي، **مفاتيح الغيب**، ٢٣٠/١١-٢٣١.

كلٌّ منهما للآخرِ. ومُؤشِّرًا إلى أَنَّ الاصْطِفاءَ والمُصَاحَبَةَ إنَّما كانت باختيارِ العَلِيِّ القديرِ وتَمَكُّنِهِ وتَفَضُّلِهِ على جميعِ خَلْقِهِ، فهو صاحبُ الحَوْزِ والإحاطَةِ المُسْتَغْنِي عن جميعِ خَلْقِهِ.

١٩. السُّلُوكُ والاتِّجَاهُ: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلا﴾[١].

تَضَمَّنَتْ سورةُ الإنسانِ صورًا كثيرةً من أحوالِ الإنسانِ في خَلْقِهِ ومَعَاشِهِ وآخِرَتِهِ، وذكرتْ أحوالَ السُّعَدَاءِ ومآلَهُمْ والأَشْقِياءِ وعاقِبَتَهُمْ. ثُمَّ أشارتْ هذه الآيةُ في خَوَاتِيمِهَا إلى أَنَّ هذه السورةَ وما فيها من آياتٍ إنَّما ساقَهَا الله وَعْدًا ووعيدًا، وترغيبًا وترهيبًا؛ لتكونَ تذكرةً وموعظةً للمتأملينَ، وتَبْصِرَةً للمُسْتَبْصِرينَ. فمن شاءَ وأَرادَ الخيرَ لنفسِهِ في الدنيا والآخرةِ اتَّخَذَ طريقًا إلى ربِّهِ بالتقرُّبِ إليه بما يحبُّهُ ويرضاه[٢].

استعملَ التعبيرُ القرآنيُّ الفعلَ (اتَّخَذَ) بمعنى سَلَكَ واتَّجَهَ، ولم يقل (أَخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلا). فقد أفادتْ الزيادةُ فيه معنى التَّمَكُّنِ والتَّحَوُّطِ والدَيْمُومَةِ في سلكِ هذا السبيل. كيف لا وهو السبيلُ إلى نجاةِ الإنسانِ في دنياه وآخرته. وكيف لا يتمسكُ به الإنسانُ ويَتَحَوَّطُ له ويُدَاوِمُ عليه بعدما فَصَّلَ الله له في سياقِ هذه السورةِ أهوالَ ما سَيَلْقَاهُ المُنْحَرِفونَ عن طريقِ الحقِّ والإيمان. وانظُرْ إلى الفعلِ (اتَّخَذَ) ومُتَعَلَّقِه (إِلَى رَبِّهِ) ومفعولِهِ (سَبِيلا)، لقد تآزرتْ هذهِ المكوناتُ التركيبيةُ السياقيةُ في إِفَادَةِ المعنى وتوجيهِهِ، فالإنسانُ إذا اتَّخَذَ سبيلا فإنما يكونُ هذا السبيلُ اتِّجَاهًا يَسْلُكُهُ ومَقْصِدًا يَؤُمُّهُ.

٢٠. الجَعْلُ والصَّيْرُورَةُ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ، اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٣].

تتحدثُ الآيتانِ السابقتانِ عن بعضِ عقائدِ أهلِ الكتابِ التي كفروا بسببها، فقد زعمَ اليهودُ أَنَّ عُزَيرا ابنُ الله، وزعمَ النصارى أَنَّ المسيحَ ابنُ الله، وتجاوزوا ذلك إلى ما هو أَشدُّ، وهو اتِّخَاذُهُم أَحْبارَهُم ورُهْبانَهُم أَرْبابا من دونِ الله، فأَطاعوهم في تحريمِ ما أَحلَّ اللهُ وتحليلِ ما حَرَّمَ اللهُ، وجعلوهم بطاعَتِهِم لهم كأَنَّهم آلهةٌ لهم، يُطاعونَ فيما يُشَرِّعونَ، ظانِّينَ أَنَّهم مقدسون[٤].

---

(١) الإنسان: ٢٩.

(٢) ينظر: الرازي، **مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)**، ٧٦١/٣٠.

(٣) التوبة: ٣٠-٣١.

(٤) ينظر: أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي (٩٨٢هـ/١٥٧٤م)، **تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٥٩/٤-٦٠.

استعملَ التعبيرُ القرآنيُّ الفعلَ (اتَّخَذُوا) بمعنى الجَعْلِ والصَّيْرُورَةِ. فقد جعلَ اليهودُ والنصارى علماءَهم سادةً يستجيبونَ لهم فيما يُشرعون لهم، وإنْ كانوا على ضلالٍ في ذلك. الدلالةُ الصرفيَّةُ للفعلِ (اتَّخَذُوا) بصورتِهِ المزيدةِ أَكَّدَتْ على دوامِ ممارسةِ هؤلاءِ لهذهِ العقائدِ الباطلةِ، واستمرارِ وقوعها منهم. ليفهم السامعُ أَنَّ تَأْلِيهَ هؤلاءِ لرهبانِهِم كانَ فيه إصرارٌ، وباتَ عقيدةً راسخةً وسلوكا مضطردا لا يتحولون عنه. ولذلك لم يقل: (أَلَّهُوا أَحْبَارَهُم ورُهْبانَهُم)، ولو قالَ لكانَ قد أَثْبَتَ وقوعَ هذا الفعلِ منهم، ولكنَّ اختيارَهُ للفعلِ (اتَّخَذُوا) فيه دلالةٌ على افْتِعَالِ هذا الأمرِ منهم، وفيه إشارةٌ إلى رسوخِ هذا المعتقدِ الباطلِ في عقلِهِم الدِّينيِّ. الفعلُ (اتَّخَذُوا) بما فيه من حروفُ الزيادةِ، ثم وقوعه على مفعولين، استوعب هذا المعنى بما يحمله معناه المحوريُّ من دلالةِ الحَوْزِ والإحاطةِ والتَّمَكُّنِ. فقد تآزرتْ الدلالتانِ المعجميةُ والصرفيةُ مع الدلالة التركيبية في السياق لإفادةِ معنى التحول والصيرورةِ الدائمينِ المستمرينِ لإثباتِ فسادِ عقائدِ أهلِ الكتاب.

٢١. التَّكَسُّبُ والانْتِفَاعُ: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾[١].

تعرضُ الآيةُ الكريمةُ لمشهدٍ من قصةِ موسى والخَضِرِ عليهما السلام، فقد سارا في طريقهما حتى حلَّا بإحدى القرى، وطلبا من أهلها إعطاءَهما طعاما يأكلانه، فرفضوا إطعامهما شُحًّا وبُخْلًا. فرأَيا في القريةِ جِدارا يكاد يقعُ، فَهَدَمَهُ الخَضِرُ عليه السلام ثُمَّ أعادَ بناءَهُ، فعجبَ موسى عليه السلام من تَصَرُّفِهِ وما بذلَهُ من جُهْدٍ في هدمِ الجدارِ ثُمَّ إقامتِهِ لقومٍ بُخَلاء يَضِنُّونَ عليهما بالطعام. فقال له يَلُومُهُ: لو أردتَ لَطلبتَ من هؤلاء القومِ أَجرًا جزاءَ عَمَلِكَ [٢].

استعملَ التعبيرُ القرآنيُّ الفعلَ (اتَّخَذَ)، وهو مزيدٌ على صيغة افتعل من (أَخَذَ)، بمعنى التَّكَسُّبِ والانْتِفاعِ في طَلَبِ الأَجْرِ جزاءَ العملِ. ولم يقل: لو شئتَ لطَلَبْتَ أو أَخَذْتَ عليهِ أَجرا. فالمقصود ليس مجردُ الطَّلَبِ أو الأَخْذِ؛ فهذا يكونُ في موقفٍ عاديٍّ يَطْلُبُ العاملُ فيهِ أَجْرَهُ من صاحبِ العمل. ولكنَّ الموقفَ هنا طَلَبُ الأُجْرَةِ على عَمَلٍ قام به الخَضِرُ عليه السلام لقومٍ بخلاءَ رفضوا إطعامهما. فجاءت الزيادةُ في الفعلِ لتدُلَّ على معنى القُوَّةِ والتَّمَكُّنِ في تحصيلِ الأَجْرِ وحَوْزِهِ؛ فهما بِأَمَسِّ الحاجةِ لمالٍ يشتريانِ بهِ طعاما يُقِيمُ أَوَدَهُمَا. ثُمَّ إنَّ اختصاصَ الفعلِ بوقوعهِ على المفعولِ(أَجْرا) وجَّهَ دلالةَ الفعلِ، فاتِّخَاذُ الأَجْرِ لا يكونُ إلا طَلَبا له على سبيلِ التكسُّبِ والانتفاعِ.

(١) الكهف: ٧٧.

(٢) ينظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ١٦/٨-٩.

٢٢. الصُّنْعُ والبِنَاءُ: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾[١].

تحكي هذه الآيةُ ما آلَ إليه أَمرُ أهلِ الكهفِ بعد يَقْظَتِهِمْ من رَقْدَةٍ لم يعرف لها التاريخُ مثيلا، إذ مكثوا نياما ثلاثمائةٍ سنينَ وازدادوا تسعا. ثُمَّ كانَ أَنْ أَطْلَعَ الله الناسَ عليهم بعد تلك الأجيالِ العديدةِ التي ظلوا فيها نائمين، ليعلموا بما عَرَفُوهُ من أحوالِهِمْ العجيبةِ أَنَّ وعدَ الله تعالى في البعثِ والنُّشورِ بعد الموت حقٌّ[٢].

اختلفَ الناسُ فيما يفعلونَهُ بعد أَنْ عادَ الفتيةُ إلى كهفِهِم وأَمَاتَهُم الله. هَرْجٌ وَمَرْجٌ، سِجَالٌ ودَهْشَةٌ وانْفِعالٌ. قال فريقٌ منهم: (ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا)، مُجَرَّدُ بِناءٍ يَسُدُّ عليهم كهفَهُم ويَطْمِسُ على آثارِهِم، وقال فريقٌ آخر، ويبدو أنَّهم من عِلْيَةِ القومِ فقد وصفهم القرآن بقوله: (قَالَ الذينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِم): لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا.

وفي هذا المقام يبرزُ الفعل (لَنَتَّخِذَنَّ) بما يحمِلُهُ من صفاتٍ تركيبيةٍ دالةٍ على التوكيدِ والقسمِ والاستمرار ليحملَ معنى الصُّنْعِ والبِنَاءِ الدائمين المستمرين. فقد جاء مزيدا من (أَخَذَ) على صيغة الافتعالِ، مضارعًا مُؤَكَّدًا بالنونِ متصلًا بلامِ القسم. وهي صفاتٌ تصريفيةٌ تركيبيةٌ مؤثرةٌ في توكيدِ معنى الصنعِ والبناءِ وديمومَتِهما. وقد ساهَمَتْ المكوناتُ التركيبيةُ السياقيةُ المتمثلةُ بقولهِ (ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانا)، واختصاصِ الفعلِ بمفعولِهِ(مَسْجِدًا) في الخلوصِ إلى دلالةِ الصنعِ والبناءِ.

ولا شك أن ذلك يتصلُ بما انْطَوَتْ عليهِ الحكمةُ من قصةِ هؤلاءِ الفتيةِ؛ فقد أرادَ الله عزَّ وجلَّ أن تُخَلَّدَ سيرتُهُم ويُؤَرَّخَ لها، لتكونَ مثلًا شَرُودًا للعالمِ كلِّهِ، لتُعْرَفَ قصةُ نَفَرٍ من الناسِ ضَحَّوا في سبيلِ عقيدتِهِم وفَرُّوا بدينهم من سَعَةِ الحياةِ إلى ضيقِ الكهفِ؛ ليكونوا مثلًا لكلِّ أهلِ العقيدةِ، ودليلًا على أَنَّ الله تعالى ينصرُ أهلَهُ ويدافعُ عنهم ويُخَلِّدُ ذِكْراهُمْ إلى قيامِ الساعةِ[٣].

إنَّ العدولَ في الفعل (أَخَذَ) من الصيغةِ المجردةِ إلى صيغةِ الافتعالِ المزيدةِ أَضْفَى على الفعل معنى الديمومةِ والاستمرار؛ فإذا كان أَخْذُ الشَّيْءِ يعني حَوْزَهُ والحُصُولَ عليه فإنَّ الاتِّخَاذَ أَخَصُّ منه فيكون لِشَيْءٍ يَسْتَمِرُّ، قال أبو هلال العسكري: "وَالاتِّخَاذُ أَخَصُّ الشَّيْءِ لِأَمْرٍ يَسْتَمِرُّ فِيهِ، مِثْلُ الدَّارِ يَتَّخِذُهَا مَسْكَنًا وَالدَّابَّةُ يَتَّخِذُهَا قَعْدَةً"[٤].

(١) الكهف: ٢١.

(٢) ينظر: الرازي، **مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)**، ٢١/٤٤٧-٤٤٨.

(٣) الشعراوي، محمد متولي (١٤١٨هـ/١٩٩٧م)، **تفسير الشعراوي – الخواطر**، مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧م، ١٤/٨٨٦٥.

(٤) العسكري، **الفروق اللغوية**، ١/١٣٨.

٢٣. اللَّوْمُ والعِتَابُ: ﴿قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾[١].

وَعَدَ موسى عليهِ السلامُ صاحبَهُ الخَضِرَ بِأَنَّهُ سيصبرُ على ما يراهُ من الأمورِ المَخْفِيَّةِ الأسبابِ، التي تجري أمامَهُ، وأَنَّهُ لن يعصيَ له أمرا، فَأَذِنَ له الخَضِرُ بصحبتِهِ، وأرشدَهُ إلى ما يقتضي دوامَها، وهو عدمُ سؤالِهِ عن شيءٍ يراهُ بعينِهِ وينكرُهُ بقلبِهِ، وأَنَّ عليهِ الصبرَ حتى يُفَسِّرَ له الخَضِرُ ما عَمِيَ عليه من سَبَبِهِ. وهنا نرى موسى عليه السلامُ ينسى ما عاهدَ عليه الخَضِرَ، ويُوَجِّهُ إليه لوما شديدا، ويَحْكُمُ عليه بأنه ارتكبَ ذنبا عظيما، بعدما رأى فِعْلَهُ في خَرْقِ السفينةِ قبلَ أَنْ يستمعَ إلى سببِ هذا الفعلِ[٢].

لم يُخاطِبْ موسى عليهِ السلامُ الخَضِرَ بقوله: اعْذُرْنِي، أو لا تَلُمْنِي أو لا تُعَاتِبْنِي، بل قال: (لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ). فقد اتَّسَعَ الفعلُ (تُؤَاخِذُ) ليشملَ معانيَ الاعتذارِ والالتماسِ، وطلبِ الصَّفْحِ والمُسامحةِ، وعدمِ اللَّوْمِ. وهذا الاتِّساعُ في المعاني مُتَّسِقٌ مع المعنى المحوريِّ للفعلِ (أَخَذَ) الدالِّ على الحَوْزِ والإحاطةِ. وقد سمحتْ الدلالةُ الصرفيةُ لصيغةِ الفعلِ بما فيها من حروفٍ زائدةٍ وأهمُّها المَطْلُ في الأَلِفِ لهذا الاتِّساعِ؛ فالمطلوبُ أَنْ يشملَ النهيُ كلَّ أشكالِ اللَّوْمِ والعِتابِ لِيَصِلَ موسى إلى مُبْتَغَاهُ فيكملَ صُحْبَتَهُ مع الخَضِرِ، وهذا ما كان.

وبعدُ؛ فهذه أشهر المعاني والدلالات التي خرج إليها الفعل (أَخَذَ) ومشتقاته في القرآن الكريم، وقد تَبَدَّتْ للباحث بعد استجلائها في سياقاتها جملةٌ من النتائج أهمها:

١. الجذر اللغوي للفعل (أَخَذَ) مُكْتَنِزٌ بطاقةٍ توليديةٍ دلاليةٍ قابلةٍ للانفتاحِ والاتِّساعِ باتجاهاتٍ متنوعة. وقد سمح بذلك طبيعةُ المعنى المحوري الدال على الحوز والجيب والجمع؛ فهو معنى عام يصلح للتوزع والانتشار باتجاهات دلالية متنوعة.
٢. اتَّسَعَتْ معاني الفعل (أَخَذَ) ومشتقاته في القرآن إلى دلالات لم تذكرها المصادر اللغوية. وهذا أمر يرتبط بطبيعة المعنى المحوري للفعل (أَخَذَ) الذي يصلح للاتساع إلى مثل هذه المعاني والدلالات وإلى غيرها مما يمكن أن يطول حصره.
٣. اتَّسَعَتْ الصيغ التصريفية للفعل (أَخَذَ) ومشتقاته في المصادر اللغوية إلى صور لم يستعملها القرآن، ومثال ذلك (الإِخَاذَةُ والأَخِيذُ والتَّأْخِيذُ وغيرُها)، وهذا أمر طبيعي فالقرآن ليس كتاب لغة؛ بينما المصادر اللغوية تسعى إلى استقصاء الصور التصريفية التي ثبتت في الاستعمال اللغوي.

(١) الكهف: ٧٣.

(٢) ينظر: أبو السعود، **تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)**، ٥/٢٣٤-٢٣٥.

٤. تآزرت الدلالة المعجمية للفعل (أَخَذَ) ومشتقاته، متمثلة بمعناه المحوري مع المكونات التركيبية السياقية للآيات التي ورد فيها في توجيه الدلالة المقصودة، وقد ظهر ذلك في معظم السياقات التي عرض الباحث لها.
٥. تآزرت الدلالة المعجمية للفعل (أَخَذَ) ومشتقاته، متمثلة بمعناه المحوري، مع الدلالة الصرفية للصيغة المستعملة في السياق القرآني لتؤديا معا عددا من الدلالات والمعاني وقد ظهر ذلك في مواضع كثيرة كان أبرزها الصيغة المزيدة (اتَّخَذَ) وتصريفاتها، وصيغة (يُؤَاخِذُ).

المراجع

ابن الأثير الجزري، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٧٩م.

الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد بن الهروي، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

الأنباري، أبو البركات كمال الدين، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، المكتبة العصرية، ط١، ٢٠٠٣م.

الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي، البحر المحيط في التفسير، المحقق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.

الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.

ابن الجزري، شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد بن يوسف، النشر في القراءات العشر، تحقيق: علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى، تصوير دار الكتاب العلمية.

الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٨٧م.

ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠١ م.

خليل، حلمي، الكلمة دراسة لغوية معجمية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط٢، ١٩٨٠م.

الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن الملقب بفخر الدين، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠ هـ.

رؤوف، رنا طه، الدلالة المركزية والدلالة الهامشية بين اللغويين والبلاغيين، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، ٢٠٠٢م.

ابن أبي ربيعة، عمر، ديوانه، قدم له ووضع هوامشه الدكتور فايز محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٦م.

رضا، محمد رشيد بن علي، تفسير القرآن الحكـــيم (تفـــسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

الزّبيدي، أبو الفيض محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، هذا الجزء بتحقيق عبد الستار فراج، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٧١م.

الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمرو بن أحمد، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.

السراج، أبو بكر محمد بن السري، الاشتقاق، تحقيق: محمد صالح التكريتي، مطبعة المعارف، بغداد، ط١، ١٩٧٣م.

أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

أبو سكين، عبد الحميد، الاشتقاق وأثره في النمو اللغوي، مكتبة الفنون النموذجية، ط١، ١٣٩٩هـ.

ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠ م.

ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل، المخصص، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

الشعراوي، محمد متولي، تفسير الشعراوي – الخواطر، مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧م.

الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله اليمني، فتح القدير، دار ابن كثير، دمشق، دار الكلم الطيب، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ.

الصغاني، رضي الدين الحسن بن محمد بن الحـــسن القرشـــي، الشوارد: ما تفرد به بعض أئمة اللغة، تحقيق وتقديم: مصطفى حجازي، الهيئة العامة لشـــؤون المطابـــع الأميريـــة، القاهرة، ط١، ١٩٨٣م.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد، جامع البيان في تأويل القرآن، المحقق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠٠ م.

طرزي، فؤاد حنا، الاشتقاق، مكتبة لبنان، ط١، ٢٠٠٥م.

ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤هـ.

العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، الفروق اللغوية، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة.

ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكرياء القزويني، مجمل اللغة، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٦ م.

ابن فارس، أحمد بن زكرياء القزويني، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م.

الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم أنيس، دار ومكتبة الهلال.

الفيروز آبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت، ط٨، ٢٠٠٥ م.

القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٦٤م.

القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك، لطائف الإشارات (تفسير القشيري)، المحقق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣.

المتوكل، أحمد، الوظائف التداولية في اللغة العربية، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٥م.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.

النيسابوري، أبو القاسم نجم الدين محمود بن أبي الحسن بن الحسين، إيجاز البيان عن معاني القرآن، المحقق: الدكتور حنيف بن حسن القاسمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

ابن هشام، أبو محمد جمال الدين عبد الله بن يوسف بن أحمد، شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، المحقق: عبد الغني الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع، سوريا.

يعقوب، د. إميل بديع، المعجم المفصل في شواهد العربية، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٦م.